

مَن يُبلِّغ النَّاس؟

أنَّ: ﴿ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾

بيان أن القرآن هداية..

في كل كلمة وآية.. وما بين الآية والآية..



توفيق بن خلف الرّفاعي

بيان أن القرآن هداية
في كل كلمة وآية

الطَّبْعَةُ الأُولَى

١٤٣٩ هـ ـ ٢٠١٨م

مـن يُبَلِّـغُ النَّـاس   أن القرآن ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾

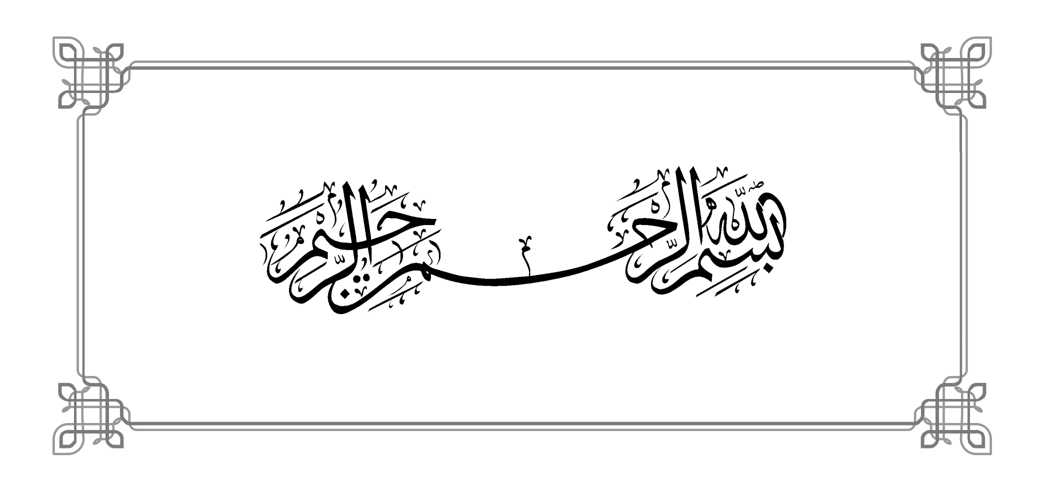
بيان أن القرآن هداية في كل كلمة وآية

بل حتى فيما بين الآية والآية

آيات الصيام نموذجًا

تَأْلِيف الشَّيْخ

توفيق بن خلف الرفاعي


بسم الله الرحمن الرحيم

منارة الكتاب [1]

۞ المنارة الأولى: القرآن هدى للجميع:

لئن قال الله سبحانه في صدر سنام القرآن ـ سورة البقرة المباركة ـ: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٢] وفَهِمَ البعض أن هدى الكتاب خاص بالمتقين، فقد قال سبحانه في نفس السورة المباركة: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

إذاً فهو ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وهو ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ كذلك، أي: فمن لم يَحْمِلهُ تقواه على تبليغ هدى الكتاب للناس فما هو من المتقين الحقيقيين، بل إن الله تبارك وتعالى جعل غاية بيانه سبحانه لآيات الصيام هو تحويل الناس إلى متقين فقال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧].

فليس هدى القرآن حِكراً على المتقين، بل هو هدى للناس من باب أولى، فأصل الهدى للضالين وليس أصله للمهتدين، ثم إن إنقاذ إنسان من الخلود في العذاب أولى من زيادة حسنات مؤمن أو زيادة رفع درجاته... لكن إبلاغ القرآن للناس كافة إنما يكون في العادة عن طريق من اهتدى واتقى.

۞ المنارة الثانية: كل شيء في القرآن هدى:

دلائل وحدانية الله تبارك وتعالى في حديثه سبحانه عن الأحكام كدلائل

(١) هذه المقدمة خاصة للمسلمين.

وحدانية الله في حديثه عن الأكوان.... فكله كلام الرحمن، فالعبرة بصاحب الحديث وحديثه سبحانه، والحقيقة هي: أنك لا تدري أي آيات الله ينفذ إلىٰ قلب هذا، وأي آيات الله ينفذ إلىٰ قلب ذاك، فالقلب يبقىٰ قلباً ولا يأس في أي إنسان ما دام يملك قلباً ونحن إنما نراهن علىٰ القلب، قال الله سبحانه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] فتخصيص القلوب المؤمنة أولاً باطمئنانها لكلام الله لأنه هو الواقع ولأنها آمنت فعلياً، أما الختام بقوله ﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ فهذه بشرىٰ عامة، وهو والله فتح حيث أن القلوب عمومًا تطمئن بكلام الله تعالىٰ، فاجعل القلوب تباشر استقبال كلام ربها، واخرج من بين ذلك، وسوف ترىٰ ما يصنع القرآن في القلوب وهذا من أهداف هذا الكتاب التي آمل من الله أن تتحقق والله ذو الفضل العظيم.

ففي كل آية من آيات الصيام الخمس هداية للناس، بل في كل كلمة منها هداية، بل ترىٰ في الفراغ الذي بين الآية والآية هداية.

وقد جاء مرة خاصةُ صَحْبِ إبليس، يطلبون معرفة ما حدث في الأرض، فكان القرآن، وكانت المواجهة وكان اجتياح الهدىٰ لهم كاملاً فقال سبحانه: ﴿وَإِذۡ صَرَفۡنَآ إِلَيۡكَ نَفَرٗا مِّنَ ٱلۡجِنِّ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم مُّنذِرِينَ ٢٩ قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلۡحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٠ يَٰقَوۡمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغۡفِرۡ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمۡ وَيُجِرۡكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ٣١ وَمَن لَّا يُجِبۡ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيۡسَ بِمُعۡجِزٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَيۡسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءُۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ٣٢ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ

ٱلْمَوْتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣٣].

وقد جاء مرة وفْد نصيبين، وهم أعلم علماء النصارىٰ، لجدال النبي ﷺ، فتكلموا وأفرغوا ما عندهم من حجج، وما كان جواب رسول الله ﷺ إلا القرآن، وقد سجل الله سبحانه هذا الموقف العظيم لهم فقال سبحانه: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٢ ـ ٨٥].

وهاجر أصحاب النبي ﷺ من بلدهم مكة إلىٰ هذا الصوب وذاك، فمصعب بن عمير هاجر إلىٰ المدينة، بحثاً عن مهجرٍ آمن للنبي ﷺ وصحبه، وما كان مع مصعب إلا القرآن، وما كان يصنع مصعب رضي الله عنه مع كل معارض ومعادٍ ومستفسر إلا أن يعرض عليه القرآن، ثم يتركه يحكم لنفسه، وما دار العام دورته حتىٰ دخل الاسلام سبعون بيتاً من بيوت المدينة، **وكان الفريق المهاجر الآخر للحبشة**، فأَسْمعوا حاكمَها وملكها القرآن بناء علىٰ طلبه، فقرأ عليه جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ـ وهو ابن عم النبي ﷺ ـ أول سورة مريم، وذلك قوله تعالىٰ: ﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا

﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ
وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا
نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي
غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ
رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل
لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ
ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ
وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ
يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَٱذْكُرْ
فِي ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا
فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ
تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ
لِي غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ۖ
وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ * فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ
بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ
هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ
سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي
عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِيٓ إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا
﴿٢٦﴾ فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا
كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ
مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي

مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [مريم: ١ - ٣٦].

فلم يملك النجاشي نفسه، وأخذ عوداً من الأرض، وقال «يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان: والله ما يزيدون على الذي نقول فيه ما سوى هذا، مرحبا بكم وبمن جئتم من عنده، أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي نجد في الإنجيل، وأنه الرسول الذي بشر به عيسى ابن مريم، انزلوا حيث شئتم، والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته حتى أكون أنا الذي أحمل نعليه»[١]... المواقف كثيرة جداً، وصدق الله سبحانه إذ قال: ﴿وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ وأي جهادٍ بالقرآن مثل جهاد رسول الله ﷺ بالقرآن نفسه.

۞ المنارة الثالثة: القرآن يهدي حقيقة:

ليس الهدى الحقيقي هو الهدي المعرفي، هدى القلم واللسان إنما هو الهدى الذي ينقل الانسان نقلاً حقيقياً من الظلمات إلى النور، ويعيد الناس من عداد الموتى إلى الحياة الحقة، ومن الجهل بالله والشرك بالله ليس إلى العلم بالله فحسب، وإنما ينقل الناس إلى عبادة الله وحده فعلياً، ولذا كان خطاب الأنبياء عليهم السلام للناس لا يرتكز على العلم بالله فحسب، وإنما على عبادة الناس

(١) صحيح السيرة النبوية ص ١٦٦.

ربهم كما قال سبحانه في نوح ﵇ ودعوته: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف: ٥٩].

ونادهم هود ﵇ بعبادة الله وحده كذلك فقال سبحانه: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف: ٦٥].

وهكذا كان نداء صالح ﵇: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً ۖ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِىٓ أَرْضِ ٱللَّهِ ۖ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣].

وكذلك كانت دعوه شعيب إلىٰ عبادة الله وحده: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا ۗ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ ۖ فَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا۟ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥].

وقال سبحانه في عموم المرسلين ﵈: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

وهداية القرآن للناس هي الحقيقة الفعلية التي يجب أن نحمل عليها كلام الله تعالىٰ، ولا ننصرف عنها، ولا نصرفها، لأن هذا هو كلام الله الذي هو من الله بكل معنىٰ الكلمة، فإذا ما تقاصرت أفهامنا وتقاصرت عن بلوغ أعلىٰ

درجات الحقيقة للفظ الكريم فلنذكر أن الله علىٰ كل شيء قدير وهو سبحانه صاحب الكلام، وكلامه منه سبحانه وهو يفتح هداه من كتابه كيفما يشاء ومتىٰ يشاء وعلىٰ يد من يشاء، وكما فتحه علىٰ يدي رسوله ﷺ وكان فتحه علىٰ يديه ﷺ أعظم الفتح، وأعظم الهدىٰ علىٰ يد بشر، لأنه عليه أَنْزلَ القرآن، ولأنه الأَولىٰ والأَساس ﷺ، وكلُّ فتحٍ علىٰ غير طريقه فهو ضلال، **ولكن إياك أن تقعد بفهمك القياسات عن بلوغ الحقيقة، فتحبسك عن الانطلاق إلىٰ هذا الأُفق اللا متناهٍ فتقول مستغرباً من أن كلام الله يحمل الهدىٰ الفعلي... فتقول كما قيل: الكلام من حيث هو كلُّه كلام، فكلام الله وكلام خلق الله كله كلام، وأحرفه واحدة وكلماته واحدة وصوته واحد وما إلىٰ ذلك....!**

إلا أن النبي ﷺ وفَّرَ علينا العناء الكبير في التعريف بالفارق بين الكلام والكلام حين قال في حديثٍ رواه الدارمي عَنْ شَهْرِ بْنِ حَوْشَبٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَقُولُ الرَّب ﷻ: مَنْ شَغَلَهُ القُرْآن وذَكَرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِينَ وفَضْلُ كَلَامِ اللَّهِ عَلَىٰ كَلَامِ خَلْقِهِ، كَفَضْلِ اللَّهِ عَلَىٰ خَلْقِهِ»[1] إذاً فهل يمكن أن يكون الفارق ما بين كلام الله وكلام خلق الله هو فارق جمالي؟ أو فارق بلاغي؟ أو فارق معرفي؟! ثم إنه – وعلىٰ فرض أنه ـ لو لم يكن كلام الله مباشرة، وكان أصغر شيء من خلق الله، ولو كان بعوضة، أو مما لا تراه العين المجردة، وأراد الله أن يجعل في ذلك المخلوق الذي لا تراه العيون قوة يدمر فيها كل شيء علىٰ الأرض... فهل يقدر الله علىٰ ذلك؟ وكيف لا يقدر وهو علىٰ كل شيء قدير، وها نحن نرىٰ كيف يفتك في البشر فيروسات لا ترىٰ بالعين المجردة، فليست العبرة بهذا الشيء أو ذاك إنما العبرة في ماذا جعل الله

(١) رواه الترمذي (٢٩٢٦) وقال محقق فضائل القرآن لابن كثير (٢٧٤).

في هذا المخلوق أو ذاك، من قوة وخصائص... وهذا بعض معاني قول الله تبارك وتعالىٰ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٦]، هكذا الأمر في خلق الله إذا شاء فكيف والقرآن العظيم كلامه.... نعْم كلامه هو سبحانه.... فهل تصورنا كون القرآن يهدي حقيقة وكيف أنها بعض عظمة القرآن العظيم، أم لَمَّا بَعْدُ؟ كيف وكلامه سبحانه منه بدأ وإليه يعود؟

إذًا فيجب أن نعرف جيداً أن حقيقة الهداية موجودة في هذا الكتاب...
إن نفخ روح الهداية في هذا الكتاب... إن بعث الهداية في الناس كبعث الميت إلىٰ الحياة ثانية هي في هذا الكتاب... إن الإشراق الحقيقي للبصيرة التي مظهرها البصر، وللقلب الذي مَظهرهُ الأعضاء، وتغيير النفس التي هي سر تغيير الأقوام والأمم.... كل ذلك وغيره في هذا الكتاب، إنه كلام الله الذي فيه القوة التي هي من قوة صاحب الكلام وهو رب العالمين، وإن في هذا الكتاب التحكم والعزة كما قال عنه ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢] وهكذا امض مع هذا الكلام ومع صاحبه سبحانه، وكلما غفلت عن عظمة الكلام الكريم فارجع إلىٰ صاحبه سبحانه... ثم انظر في كلامه الكريم، فهل لهذا الشيء نظير في خلق الله؟....

وإذا غفلت عن عظمة القرآن، وتنافس العظماء في ذهنك، فانظر إلىٰ كل خلق الله مهما عظموا عند الله، ومهما عظَّمهم الله تبارك وتعالىٰ فَهُمْ شيء،

والقرآن شيء آخر؛ أرأيت الأنبياء والمرسلين عليهم السلام... أرأيت الملائكة المقربين، أرأيت العرش العظيم... عظيم فوق التصور البشري، إلا أن هؤلاء شيء والقرآن شيء آخر... فكل هؤلاء يشتركون في كونهم خلق الله أما القرآن فإنه ليس مخلوقاً بل هو كلام الله فإذا شاء الله أن يعيد كل شيء إلىٰ أصله لم يكن لكلامه الكريم إلا أن يعود إليه فمصدره ومرجعه هو الله تبارك وتعالىٰ.

ففي الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أنه قال: «يُسْرَىٰ عَلَىٰ كِتَابِ الله فَيُرْفَعُ إِلَىٰ السَّمَاءِ، فَلَا يُصْبِحُ فِي الْأَرْضِ آيَةٌ مِنَ الْقُرْآنِ وَلَا مِنَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَلَا الزَّبُورِ، وَيُنْتَزَعُ مِنْ قُلُوبِ الرِّجَالِ فَيُصْبِحُونَ وَلَا يَدْرُونَ مَا هُوَ».

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «لا تَقُومُ السَّاعة حَتَّىٰ يَرجِعَ القُرآنُ مِنْ حَيْثُ جَاء فَيَكونُ لَهُ دَوِيٌ حَوْلَ العَرْش كَدَوِيّ النَّحْل فَيَقُولُ الرَّبُّ عز وجل: مَالَك؟ فَيَقُولُ: مِنْكَ خَرَجْتُ وَإِلَيْكَ أَعُود، أُتْلَىٰ فَلَا يُعْمَل بِي، فَعِنْدَ ذَلِكَ يُرْفَعُ القُرْآن»[1].

تقول: إلىٰ أي مدىٰ يفعل القرآن العظيم فعله؟ أقول: ماذا تظن بشيء هو من الله؟ وإلىٰ الله وليس من نورٍ ولا من طين ولا من شيء بل هو من الله، إذاً فإن جواب؛ إلىٰ أي مدىٰ هو؟ إلىٰ المدىٰ الذي لا حدّ له ولا منتهىٰ، فالله علىٰ كل شيء قدير، والقرآن يهدي فعلياً ولا يتوقف عند التبشير والانذار وإن كان هو كذلك كما قال الله سبحانه ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ٢ ـ ٤]،

(١) كنز العمال (٣٨٥٢٥) وقال: رواه الديلمي.

(١) رواه الحاكم في المستدرك وقال: صحيح علىٰ شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي في تلخيصه.

فإن قلت: أَثْبتَ الله هذا الهدىٰ للتوراة التي أنزلها علىٰ موسىٰ عليه السلام وللإنجيل الذي أنزله علىٰ عيسىٰ عليه السلام فقال سبحانه ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ قُلۡ مَنۡ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِي جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورٗا وَهُدٗى لِّلنَّاسِۖ تَجۡعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبۡدُونَهَا وَتُخۡفُونَ كَثِيرٗاۖ وَعُلِّمۡتُم مَّا لَمۡ تَعۡلَمُوٓاْ أَنتُمۡ وَلَآ ءَابَآؤُكُمۡۖ قُلِ ٱللَّهُۖ ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١]، قلت: وهذا حق، والله سبحانه أنزل التوراة والإنجيل هدىٰ، ونحن نؤمن بأن الله جعل في كل ما أنزله هدىٰ، إلا أن ما أنزل الله من قبل حُرِّف لأن الله لم يتكفل بحفظه، ولم يجعله معجزة الأنبياء عليهم السلام وأما هدىٰ القرآن فهو هدىٰ الخلود الباقي، الذي لم يمس ولن يمس وهو المعجزة الخالدة إلىٰ يوم القيامة، ثم هو بمزايا القرآن التي لا يماثلها كتاب كريم ولا شيء.

۞ المنارة الرابعة: القرآن يبلغ بصاحبه الرشد:

يقول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا﴾ [الإسراء: ٩]، فالقرآن الكريم يهدي هداية حقيقية مثلما أنه يبشر تبشيراً حقيقياً، وهذهِ الهداية هي ما شهد بها فريق الجن الذين كانوا أقرب جند إبليس له، وكانوا مرسلين من قِبَلِهِ بحثاً عن الأمر الذي استجد فقال الله سبحانه وتعالى عن رحلتهم وكيف انتهىٰ الأمر بهم ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ۝١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ وَلَن نُّشۡرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدٗا﴾ [الجن: ١ ـ ٢]، ذكر الله سبحانه عن الجن شهادتهم من القرآن في أنفسهم وهو أنه ﴿يَهۡدِيٓ﴾ هداية حقيقية حين ذكر قصتهم في الأحقاف

فقال سبحانه ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَـٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَـٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢٩ ـ ٣٠]، حين يقررون بأنه ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ﴾، أي أن هداه ليس مقتصراً عليهم ولا علىٰ زمنهم بل هو يهدي باستمرار دون انقطاع، ثم هو يهدي إلىٰ أدق شيء في الهداية وهو الرشد، **فالرشد هو الذي طلبه إمام المهتدين في زمانه**، وهو موسىٰ عليه السلام من الخضر عليه السلام حين قال له ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]، هذهِ هي الحقيقة العظمىٰ، وهي أن القرآن هدىٰ للمتقين، وهدىٰ للناس، وهذا هو الوعد الأعظم الذي سوف يقع يقيناً، وهو أن هذا الهدىٰ للناس هو وعد الله، وسوف يتحقق كما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم، فهدىٰ القرآن ليس مجرد ومضات، ولا إشراقات نظرية علمية تعريفية، إنما هو شمس القرآن التي سوف تسطع فلا يملك الظلام البقاء بطلوعها أبداً، والظلم ظلمات في الآخرة لأنه ظلمات في الأرض، فكيف إذا امتلأت الأرض ظلماً ولم يبق فيها منسماً لنور ولا عدل ولا رحمة، **لكن كون القرآن الكريم يهدي فإنه لا بد له من هاد** يحمله ويبلِّغه، كما لا بد للسيف القاطع من ذراع يحمله ويقطع به، ومجاهد يجاهد به، ولا بد للنور الذي تريده يضيء للناس الظلام من إنسان يحمله، ويذهب به للناس كما قال سبحانه: ﴿أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢]

۞ المنارة الخامسة: لا شفاء من الإلحاد مثل القرآن:

أما أهل الإلحاد المتبرقعين ببرقع البحث عن الله في الوجود ـ تعالىٰ الله عما يقولون علواً كبيراً ـ فإني أقول لهم: لا تذهبوا بعيداً فإنكم لن تجدوا في الوجود كله شيئاً أشد قرباً إلىٰ الله من كلامه، بل هو من الله حقيقة، ولا شيءَ يمثل الله حقيقة مثل كلامِه الكريم، بل هو سبحانه هو الذي يدعوكم لكلامه، فتعالوا وانظروا فيه، تعالوا واجتمعوا أيها الملحدون جميعاً، وأجْمِعوا أمركم ثم ائتوا صفاً واضربوا القرآن عن قوسٍ واحدة، وانظروا هل تجدون في القرآن من فطور؟!

هذا القرآن فيه أكثر من ستة آلاف آية... وهو مائة وأربع عشرة سورة... وهذا يعني أن المجال للطعن واسع جداً... فهاتوا أي طعن عندكم علىٰ القرآن، هاتوا أي اختلاف بين آية وآية وعندكم هذا العدد الهائل من الآيات، فقد أعلن الله تحديه للناس أن يأتوا بمثل هذا القرآن فلم يجب حتىٰ هذه اللحظة أحد، هذا وقد قرر الله سبحانه أولاً بأنهم لن يستطيعوا فقال سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، فإن هذه هي نتيجة التحدي مسبقاً، فكان إعلان النتيجة قبل البدء بالتحدي هو مجازفة، لا يمكن أن يفعلها مخلوق مع مخلوق مثله، لأنه يعرض مصداقيته للخطر، ولأنه لن يستطيع أن يحيط بكل احتمال، لكنهم أمام تحدي الله هذا لم يجُيبوا، بل فوق كل هذا فقد نوَّع الله سبحانه لهم التحدي فلم يجيبوا، كما أنه سبحانه خفض لهم التحدي شيئاً فشيئاً ولم يجيبوا في أي مرحلة، فتحداهم أولاً بأن يأتوا بقرآن مثله فقال: ﴿فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن

كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤]، فلم يجيبوا، ثم تحداهم أن يأتوا بعشر سورٍ مثله فلم يجيبوا فقال سبحانه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَٰتٍ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [هود: ١٣]، ثم تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة فقط، وليختاروا أصغر سورة إن شاؤوا فقال سبحانه ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ مَنِ ٱسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [يونس: ٣٨]، فلم يجيبوا، وقال كذلك ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]، فيا أهل الإلحاد: هذا التحدي بكل مراحله أمامكم اليوم، اختاروا جميعاً أي مرحلة، وأعلنوا للناس أنكم سوف تأتون بقرآن مثل هذا القرآن، أو بسورة واحدة فقط، وحددوا الوقت الذي يكفيكم، وسخِّروا من تستطيعون تسخيره من ورائكم، ولكن أَعْلِنوا أولاً أنكم إن لم تستطيعوا فعل ذلك، فأنتم يا جميع منتسبي الإلحاد في العالم آمنتم بالله، وبهذا القرآن، وبمن أنزل عليه القرآن وبجميع ما جاء في هذا القرآن، لتقطعوا في هذه المسألة، ولتُنْهوا رحلة التيه الطويلة من أعماركم وأعمار الناس، ولتنتهي أشنع خرافة لوثت العقل البشري إلىٰ الأبد، فأنتم يا أئمة الملحدين في مواجهة كلام الله، وأما أنتم يا جموع الملحدين وعامتهم: قفوا جميعاً، واسْتَدْعُوا سادتكم لهذا التحدي، ولا مجال لهم أن ينسحبوا، فإن انسحبوا فإن النتيجة ليست إلا ما قال الله سبحانه أولاً ﴿فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤] ويا ملحدي العالم في هذا الزمان: لقد جئتم متأخرين جداً، فقد مضىٰ علىٰ هذا التحدي ما يزيد علىٰ ألف وأربعمائة سنة، والتحدي معروض علىٰ كل الملل وكل الناس، لا خفاء فيه ولا خصوصية،

فلم يُجِب أحد، ولم يتقدم أحد، وأمة العرب هي أمة الشعراء والبلغاء والدهاة، وقد كانوا أشد الناس عداء لرسول الله ﷺ أول الأمر، وأحرص الناس علىٰ إبطال رسالته ومع هذا استسلموا دون محاولة واحدة للمجيء بمثل هذا القرآن.

يا ملحدي العالم: قد جئتكم اليوم بما أرجوا أن يكون فيه مَنْفَذاً للخروج إلىٰ العالم الرحب المنير، الذي تجدونه لأول مرة في صدوركم، عالم تعرفون فيه علىٰ وجه الحقيقة لا الخيال ولا الاحتمال، أن هذا القرآن كلام الله رب العالمين، وترون فيه بأعينكم منارات الهدىٰ، في كل آية، وكل عبارة وكل كلمة، وما بين الآية والآية، وفي أجواء الآية الواحدة ومجموع الآيات تجدون الهدىٰ، وسوف تتذوقون هذا تذوقاً والله ﷻ يقول: ـ ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

يا ملحدي العالم: كفاكم بحثاً عن ربكم، كفاكم الذهاب بعيداً بعيداً في عالم التيه والسراب وتعالوا إلىٰ ما هو أقرب إلىٰ الله، لا والله بل هو من الله وابحثوا فيه ما شئتم، وأنا أعرض عليكم اليوم النظر القريب إلىٰ شيء هو من الله وهو كلامه، فانظروا معي إلىٰ هذهِ الآيات الخمس فقط.... وقولوا بعدها: أيقول هذا الكلام أحد إلا الله؟ بل هل ستملكون قلوبكم وأنتم تقرأونها اليوم؟ وأقول لكم مقدماً: إن هدىٰ القرآن سوف يجتاح إلحادكم والله الذي لا إله إلا هو.

۞ المنارة السادسة: كل مُتَحدٍ سوف ينقطع:

في هذا الكتاب شهادة يقين لا ريب فيها، تتكرر وترسخ أبعد وأعمق من رسوخ الراسيات، وهو **أن هذا هو كلام رب العالمين، ولا يقوله إلا رب العالمين**.

إنك إذا قلت انقطعت الفوائد إذا بها تتواصل، وكلما انتهىٰ ذاك التواصل عندك ترك عندك رسالة، أنك ما زلت في الابتداء، فَبَحر القرآن لا يجففه الإنسان، ولا الأقلام ولا الأجيال، وصدق الله تعالىٰ إذ قال ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧]، إن هذه الفوائد الكثيرة التي لا تنقطع، والمُحْكمة التي لا تضطرب، والمتنوعة التي هو فوق التصنيف والتأليف البشري، تجعل نَفَسَ كل مُلْحدٍ أو معاند ينقطع، فموجات النور تغمره من كل اتجاه من حوله، ومن فوقه كذلك، فلا يملك الثبات علىٰ القول بأن هذا القرآن من البشر، وسوف يعلو صراخٌ في داخل كل مُلحد: مستحيل.... مستحيل، يستحيل... أن يكون هذا المتحدث إلا الله رب العالمين.

وما ذلك الصراخ في داخل نفس كل ملحد إلا شهادة تجدها في كل نفس إنسانية أنها حين قُرِئَ عليها القرآن وشهدتْ، أو حين قرأت القرآن شهدت بنفسها وعلىٰ نفسها أنها لا تملك نفسها في مواجهة القرآن، ولا التحكم في ذاتها، بل هو من يملكها من أطرافها، إنه يمسكها ويزلزلها لعظمته ولعلوه وثقله، وللعلم الدقيق الذي أخبرها به عن نفسها، فإن كل نَفْس حين تستمع للقرآن تجده يحدثها القرآن عن نفسها، وعما تريد، فإنها لا تشعر بالقرب فحسب، وإنما

تشعر بشيء لم تتوقعه، وهو أن المتحدث إليها بالقرآن هو رب العالمين، لا تشك في هذا ولا ترتاب، وأنه عند الحديث إليها هو أقرب إليها من كل نفسٍ في كل حال، وحال قراءة القرآن خاصة، بل إنه أعلم بها وبذاتها، وأنه إذ يُعلِّمها فإنه يعالجها، وإذ يُطمئنها فإنه يزكيها ويهديها، ويخلِّصها من أمراضها، ومن شحها، فتنطلق في كل ما يرضي ربها، فتنفع كل ما حولها ومن حولها ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

إنها الفطرة الأولى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

ولسوف تشعر النفس بالسكينة تتخللها، فتذل رغماً عنها، وأن خالقها ليس غائباً عنها، بل كأنها تسمع منه سبحانه مباشرة، وليس هو مخلوق مثلها، فلا مجال إلا أنه ربها سبحانه، فهذا الذي حين حدثَّها عرفته من أعماق أعماقها، عرفته كل خليه فيها، وكل شعرة، وكل أجزائها كادت من تعظيمها تصيح لو أن لها لسانًا فصيح، وكأن قصتها وقد ساقها الله إلى الهدى هي قصة نبي الله موسى عليه السلام، تتكرر مع كل واحد من هؤلاء، وقد ساقه الله إلى الوادي المقدس سوقًا وهو لا يدري بنفسه ﴿ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ

بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٩ ـ ١٧] ، وكما قال الله سبحانه: ﴿لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر: ٢٣] ، وقد حدث هذا الأمر كثيراً ، مع كثيرين ممن استمعوا للقرآن فاهتدوا به ، ولا يزال يحدث إلىٰ يوم القيامة.

۞ المنارة السابعة: (طريقة البيان) أولًا:

ربما ابتدأت عند شرح بعض كلمات القرآن الكريم ببعض الأمور هي عند المسلم مسلّمات ، والعلم بها عند غير المسلم ضرورة ، لأنه يستحيل فهم المعنىٰ عنده بدونها ، فلا تتخطاها فإنها لهؤلاء ضرورة ، ولكل مسلم يريد حوارهم ودعوتهم ضرورة دعوية ، ولذا أقول لك: لا يفارقنك العيش في أفهام هؤلاء ، وقواعد قناعاتهم ، ومعاناتهم الحياتية لتكون واقعياً ، فإنك حين تكون كذلك فلسوف تجد أن القرآن أكثر منك واقعية ، بل تجده قد سبقك إلىٰ نفوسهم ، أَوَليسوا هم عباد الله وهو أعلم بما خلق سبحانه ، كما قال ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] بل هو أعلم بما في أنفسهم من أنفسهم ، وعندها سوف ترىٰ هذا الكتاب ـ بإذن الله ـ مُطَّهَر من الجدال ، أو إرادة الغلبة وقهر الخصوم ، ولن تجد فيه التكرار ولا مالا داعي لذكره.

فأنت هنا تحمل دعوة الله سبحانه للناس ، ومن يحمل دعوة الله سبحانه يعيش معاناة الناس ، ومعاناة إخراجهم من الظلمات إلىٰ النور ، وأعود مؤكداً: أوصل لهم القرآن بأي طريقة تختارها ثم تنح جانباً ، وانظر . . .

۞ المنارة الثامنة: (طريقة البيان) ثانيًا:

إن منهجي المتبع في هذا الكتاب هو أنْ أجعل الآية الكريمة أولاً ، أمام الناظرين لوحدها ، بارزةً بيِّنة ساطعة ، ثم نبتدأ الانتطاف منها كلمة كلمة ، وإذا رأيت أي كلمة من كلمات الله أَصَدِّر بها السطر مبرَزَة ، فإنما أسطر بها الجديد من نور الكلمة ، بعدما أضع قبل ذلك عنواناً للفكرة الجديدة ، لنَفهَم الخلاصة من خلال العنوان ، ولنفرق ما بين الفائدة والفائدة ، وخصوصاً أن الكلمة القرآنية واحدة ، فإذا رأيت كلمة الله جاءت أول السطر أكثر من مرة فاعلم أنها في كل مرة تحمل هداية جديدة قد ظهرت ، ونوراً قد أشرق ، فهيء عقلك لها ، وليحسن قلبك استقبالها ، ولا بد أن تعلم أنني لا أستحل لنفسي ذكر فائدة واحدة وأنسبها لكلمة الله وهي ليست مأخوذة من كلمة الله الكريمة تلك ، فكل نور هداية هنا إنما هو من كلمة الله التي في أول السطر ، أو من أجواء الآية وإشاراتها ، ولسوف تتعود تلك النفوس التي صحبتنا هنا ـ بإذن الله ـ علىٰ العروج دوماً ، وهذا ما يجعل من القارئ الكريم متمرساً بإذن الله في استخراج الفوائد وأنوار الهدىٰ من كل كلمة ، كما يجعل غير المسلم يعرف أن القرآن هو مصدر الهدىٰ ، وهو كلام الله ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] وهذه القناعة وحدها هداية عظيمة

وهذه الطريقة تجعل غير المسلم يرىٰ كل هذهِ الفوائد تنهمر من الآية ومن الكلمة وما بين الآية والآية ومن الرباط ما بين الآية والآية ، ثم هو يرىٰ كل ذلك محكمًا إحكاماً ذاتياً ، متماسك بعضه ببعض من الآية نفسها ، ويرىٰ لغة العظمة والعلو قريبة من رؤوسنا ، وغيثها لا يكاد ينقطع ، ثم هو ينظر فإذا السماء كلها

كذلك ، فلا يملك إلا أن يجثوا علىٰ ركبتيه هاتفاً بالله رب العالمين ، حاله كحال قساوسة نصيبين ، الذين أذاب قلوبهم وصلافتها كلامُ الله تعالىٰ حين سمعوه من رسول الله ﷺ: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ٨٣] .

وأخيرًا: يا أيها القارئ الكريم: لا تنس أبدًا أن هذا التأويل والبيان إنما هو بيان الهدىٰ والهداية في القرآن . . فليس هذا جانب جزئي ، ولا منحىٰ جانبي ، ولا قسم صغير تخصصي بل هذهِ هي غاية القرآن كله والتي تجدها في كل شيء في القرآن ، وهذهِ الهداية هي فوق أن تكون معانٍ لغوية تستخرجها من القواميس والمعاجم ، وفوق أن تكون أسباب نزول وذلك ضروري ، لكن الهدىٰ هدىٰ الله ، وكلام الله هذا يهدي إلىٰ الرشد ، فلا تذهب بك المقارنة إلىٰ ذم ما سبق أو ذم هذا البيان فذلك من الشيطان وحربه علىٰ القرآن . . ففي كل خير ، وأنا حين أؤكد علىٰ أن هذا تفسير هدىٰ إنما أريدك أن لا تشرد عن غايته وهي غاية القرآن ، وهي غريبة بهذا الاختصاص . . وهي التي تطرق أبواب قلوب غير المهتدون وتوشك أن تقتحمها قريبًا بإذن الله وذلك بكلام الله وهداه ، لكنها ربما لا تدغدغ مشاعر المُنظِّرين والتنظيرين ، ولا الجدليين من باب أولىٰ .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

❊ هذا كلام الله رب العالمين:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤ شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعۡوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلۡيَسۡتَجِيبُواْ لِي وَلۡيُؤۡمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمۡ يَرۡشُدُونَ ١٨٦ أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ هُنَّ لِبَاسٞ لَّكُمۡ وَأَنتُمۡ لِبَاسٞ لَّهُنَّۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ كُنتُمۡ تَخۡتَانُونَ أَنفُسَكُمۡ فَتَابَ عَلَيۡكُمۡ وَعَفَا عَنكُمۡۖ فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡۚ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمۡ عَٰكِفُونَ فِي ٱلۡمَسَٰجِدِۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقۡرَبُوهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣ - ١٨٧].

الآية الأولىٰ:

❊ النداء الإيجابي:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾: هذا هو الله يخاطب في هذهِ الآيات عباده ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ ويُحلِّيهم، ويجليهم بهذا الاسم الكريم، وهذا الاختصاص العظيم، فمن ذا لا يود أن يشمله خطاب الله ﷻ، ولا خطاب أوسع من ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾، فلو أن الله سبحانه قال: يا أيها المحسنون أو يا أيها المتقون لحصر النداء في أصحاب مقامات مخصوصة، بينما ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فإنه يشملهم، ويشمل كل المؤمنين، حتىٰ لو كانوا عاصين، بل لو لم يكن لهم مع الإيمان إلا خيط دقيق، أوْ لم يكن في قلوبهم إلا مثقال ذرة من إيمان، فما أعظمها من دعوة إيجابية، تتجاوز الأعمال والسيئات والنقائص والسلبيات والمثبطات، لأنها دعوة من صاحب الحق الأوحد، وهو الله سبحانه، فلا حق لأحدٍ أن يردك أو يطردك أو يؤاخذك أو يشمت بماضيك.

غير إن هذا النداء الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في كل المجالات، وليس في الصيام وحده، ولهذا ورد في الحديث دعوة صريحة من رب العالمين، لكل الناس دون استثناء، ومهما كان عملهم أو تقصيرهم وذلك في قوله ﷺ «إذا كان أولُ ليلةٍ من شهرِ رمضانَ: صُفِّدَتِ الشياطينُ ومَرَدَةُ الجنِّ، وغُلِّقَتْ أبوابُ النيرانِ فلم يُفتَحْ منها بابٌ، وفُتِّحَتْ أبوابُ الجنةِ فلم يُغلَقْ منها بابٌ، وينادي مُنادٍ يا باغِيَ الخيرِ أقبِلْ، ويا باغِيَ الشَّرِّ أقصِرْ وللهِ عُتَقاءُ من النارِ، وذلك كلَّ ليلةٍ».

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فيض نوراني، يكتسح ظلمات السلبية في جوانح

النفس ، فتشرق بنور الإيمان ، من خلال هذه الدعوة الخاصة والمباشرة للإنسان من ربه أنْ دع اليأس وتقدم من أوسع أبواب الأمل ، فلستَ أَنتَ أيها المؤمن ذاك الإنسان المهمل الذي لا يُفتقد إذا غاب ولا يؤبه له إذا حضر . . بل اليوم يناديك الله رب العالمين ، وكفىٰ .

والآن أعد قراءة الحديث الذي مر بك عن رسول الله ﷺ لتعرف ماذا في الدعوة الربانية ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ من حوافز وإيجابية .

❊ إما الإيمان الكبير الكامل وإلا فلا:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾: نعم ؛ لم يذكر الله ﷻ بماذا آمن هؤلاء ، ولا مَن هم ، لكن بما أن هذا النداء في كتاب صحيح من كتب الله المقدسة فقد علمنا أن المقصودين هم المؤمنون بالله ، وبما أن ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ هذهِ المرة هي الواردة في هذا القرآن الكريم ، إذًا فالمقصود المؤمنون بالقرآن الكريم ، وبمن أنزل عليه القرآن الكريم ، وهو الرسول محمد ﷺ ، ولكن وبما أن الإيمان بالقرآن الكريم وحده لا يقبل ، والإيمان برسول الله محمد عليه الصلاة والسلام وحده لا يُقْبَل أبدًا إلا بالإيمان بجميع المرسلين الذين سبقوه ، وبكل ما أنزل الله عليهم من كتب ، إذًا فإن المقصود بـ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ هو يامن آمنتم الإيمان الكبير الشامل ، ويامن ورثتم الإيمان بجميع الأنبياء عليهم السلام .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ ولما أن خصَّ الله تبارك وتعالىٰ الذين آمنوا بهذا الاختصاص التشريفي ، فهذا يعني أن ثمة فريقًا آخر يقابلهم ، وهم من جحدوا وأنكروا ، وأخذوا الجانب السلبي والإنكاري ، وربما العدواني للذين آمنوا ، بل

ولمن آمنوا به وهو الله... والسؤال هو: من ذا يرضىٰ أن يكون مع هؤلاء، ومن ذا تَحْصُلُ له فرصة ـ كهذهِ ـ ليكون من الذين آمنوا ثم لا يكون ؟! ـ.

❊ ليس الإيمان لابتزاز الأمم:

قال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾.

ومعنىٰ: ﴿كُتِبَ عَلَيۡكُمُ﴾ أي فرض عليكم، فالله سبحانه لا يجعل الإيمان دعوىٰ يدعيها من يزعمون أنهم مؤمنون ثم هم يبتزون بها من يشاؤون، ويزعمون أنهم أفضل من غيرهم، أو أنهم شعب الله المختار، أو أنهم أبناء الله وأحباؤه، أو أن الجنة خاصة بهم، وأنه لا يدخلها سواهم... أو نحو ذلك من الدعاوىٰ الباطلة... إنما يجعل الله سبحانه عليهم الصيام فرضًا لازمًا، ويبين أن فرضية الصيام ليست من بشر مثلهم، ولا من مَلَكٍ، ولا من نبي، إنما هي من ربهم وخالقهم، بشهادة قوله (عليكم) فصيغة خطاب العظمة لا تكون إلا من مقام رب العالمين وحده، لأن البشر جميعًا سواسية كما قال الله سبحانه لرسوله محمد ﷺ، وأمره أن يبلغ الخلق جميعًا بهذا، فقال له في آخر آية في سورة الكهف ﴿قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١١٠].

إذًا فلا ذات مقدسه متألهة، ولا دماء زرقاء، إنما الخالق واحد سبحانه، والخلق سواسية، والنبي محمد ﷺ بيَّن ذلك كثيرًا، وأعلن في آخر مجمع له مع الناس، حين اجتمعوا في الحج الأكبر في (خطبة الوداع) المشهورة، فقال مما قال: «أيها الناس: إن ربكم واحد وإن أباكم واحد؛ ألا لا فضل لعربي علىٰ

عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، كلكم لآدم وآدم من تراب»[1].

ولذا فإن أول من يشمله قول الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إنما هو رسول الله ﷺ، فهو أول المكلفين لأنه أول العابدين لله رب العالمين... فكيف بأَتْباعه وبقية ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلى يوم القيامة.

فهل يملك أي كاتب أن يقول لقراءٍ مثله (كتب عليكم).. وهل يملك أي كاتب أن يقول للناس فرض عليكم الامساك عن الطعام والشراب والشهوة؟! ثم من ذا يستطيع أن يأمر الأمراء والملوك والحكام والقضاة، وكذا الفقراء والمساكين على حدٍ سواء، ومن ذا الذي يستطيع أن يؤلف كتابًا بهذا الأسلوب العلي العظيم، وهذا الأسلوب العلي الرحيم، وهذا الأسلوب اللطيف الخبير، وهذا الأسلوب الحنون الكريم؟! لكن ها هم الناس يقرأون هذهِ الصيغة العلية في الخطاب، فلا تنكرها نفوسهم، بل لا تزيدهم إلا إيمانًا وخشية، ومحبة لصاحب الخطاب العلوي وتقربا.

ثم إذا فَرَضَ هذا الإنسان أو ذاك على أهل بَلَدِهِ فمن ذا يملك أن يفرض على أناس متشعبون في كل البلاد، ومن استطاع أن يفرض على هؤلاء جميعًا فأين هذا الإنسان الذي فرض ترك الطعام والشراب والشهوة لنهار شهرٍ بأكمله على كل الذين من قبلنا كما فرضه علينا؟

إنه السلطان المطلق على كل زمان ومكان.

---

(١) رواه أحمد (٢٣٤٨٩) وقال المحقق: إسناده صحيح.

❊ ماذا يعني الصيام:

قال ربنا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾.

فالصيام معروف، وهو الإمساك من الطعام والشراب والجماع، من طلوع الفجر الصادق حتىٰ تمام غروب الشمس بنية العبادة لله رب العالمين.

إذًا فإن الصيام تكليف بترك كل مَأكول ومشروب وجماع... وهذهِ حاجيات متأصلة في الإنسان، ولها برنامجها الملازم والمألوف علىٰ مدار الليل والنهار لكل إنسان... وما أصعب علىٰ أهواء النفوس أن تترك مألوفاتها حتىٰ لو لم تكن جوعىٰ ولا عطشىٰ ولا يؤثر علىٰ حياتها وصحتها...

إذا فهو برمجة جديدة للإنسان لإعادته إنسانًا جديدًا للحياة... وهو محطة لإعادة برمجة الإنسان حين يغير حساباته، بل ليعيد النظر في أساسيات حياته لمدة شهر كل عام، والشهر ليس بالقليل، لكنه ليس بالكثير كذلك، وعلى هذا الإنسان العظيم ومن أعاد حساباته في أساسيات حياته فإن إعادة الحسابات فيما سواها أولى وأسهل، فصوم رمضان كما سيتبين لنا ليس مجرد ترك طعام وشراب وشهوة عدة شهر فحسب، ثم ليس ترك الطعام والشراب والشهوة لمدة شهر بأكمله أمر مقتصر على البطن والفرج فحسب.

ثم هو ليس ترك الطعام والشراب والشهوة مطلقًا، بل في فترة النهار فقط، فهو أن التجاور والتقابل في الأفعال ما بين الليل والنهار، وهو التضاد في الأحكام ما بين الليل والنهار، وهو التغيير على مستوى أساسيات الحياة، ونقاط البرمجة الأساسية الحياتية اليومية للإنسان.

أليس هذا غربلة كاملة... أليس لهذا أثر في الفكر وأثر في النفس وأثر في القرارات الجديدة، أليس لهذا أثر في بناء الحياة الجديدة وبناء العلاقات، أليس لهذا أثر في إعادة تقييم الأكل والشرب والشهوة وخصوصًا وأن الناس في هذه الأشياء ما بين إفراط وتفريط... وما سواها أولى، ثم أليس لهذا أثر في بناء الأمة كاملة، وأثر ـ قبل ذلك ـ في بناء لبنتها الأولى وهو الفرد.

ولهذا جاءها تكليف الأمة بالصيام العظيم ولمدة شهر بأكمله، ولكنه في نهار كل يوم فقط... لتعيش الأمه المؤمنة كلها أينما كانت في مشارق الأرض ومغاربها هذا الجو الإيماني العظيم، كيف والله ابتدأ خطابها الجماعي كأمة بقوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾، ثم هي تمارس عبادة الصيام ظاهرًا، بترك الطعام والشراب والشهوة في نهار رمضان، كما أنها تمارس عبادة التطهر لباطنها وتطهير دواخل نفسها، إذ أن هذهِ العبادة لن تُقبل إلا (بنية عبادة الله) كما ذكرنا في تعريف الصيام، فهي علاقة جديدة ووثيقة بالله سبحانه، وهي قربة إلىٰ الله سبحانه، وهي ممارسة مجاهدة أهواء النفوس، وتهذيبها وتشذيبها، حتىٰ تستقيم وتخلص من اتِّباع الانحرافات السلوكية، والتي هي الأساس في الانحرافات الظاهرية للإنسان، وهي مصدر شذوذ الانسان، ومصدر عدوانيته، ولما كان هذا التطهير عملية لا يمكن أن تقع فُجأة ولا بضربة عصا حاكم، ولا بترانيم ساحر... لم يكن الصيام يومًا ولا يومين إنما كان شهرًا بأكمله، وسترىٰ كيف قال الله سبحانه بعد الآية القادمة ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ﴾.

ويترسخ إصلاح النفس في كل يوم بوجوب استحضار نية صيام الغد من كل ليلة، والنبي ﷺ يقول: «لا صيام لمن لم يبيت النية من الليل»[1]... فتتربىٰ

(١) أخرجه الترمذي (٧٣٠) بمعناه، والنسائي (٢٣٣٤).

من خلال في الصيام الإرادة والعزم، كما يصنع الصيام في داخل الصائم حسن القصد، وطيب النفس، والحرص علىٰ مرضاة ربه، وتوثيق العلاقة ما بينه وبين الله، بنية الصيام وفعل الصيام.

❁ كل يوم عيد لمدة شهر:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾.

ورغم ما في الصيام من مشقة علىٰ من ابتدأ به أول مرة، إلا أن الله سبحانه خففه كثيرًا بأن جعل الصيام في كل يوم في النهار فقط، فإذا ما جاء الليل حلّ لهم ما حرم عليهم طوال النهار، فكان الليل راحة يومية، وفسحة إلزامية، وعيد يتكرر عليه كل يوم، وقد رأينا أثر ذلك في حماسة كل صائم علىٰ صيام الغد، وحب المواصلة، والاشتياق لرمضان كلما انتهىٰ.

فأحكامه واضحة وصارمة، فلا يسمح بقطرة ماء تجاوزت البلعوم، ولا حبة دخلت إلىٰ البطن، إلا أن العزاء كان سريعًا بالإفطار عند غروب الشمس، لذا قال النبي محمد ﷺ: «للصائم فرحتان فرحة عند فطره إذا أفطر فرح بفطره وإذا لقي ربه فرح بلقائه»[1].

وهكذا هو تشريع الله سبحانه أيًا كان، فإن الإنسان يجد فيه، فرحته ولذته وفضله، كما قال الله سبحانه ﴿قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ﴾، لكن مَنْ وقف ينظر للتكليف من خارجه لم يتذوق لذته وحلاوته كما هو عيد الصيام فالعيد في آخر الشهر فهو لمن صام شهر رمضان أو كان

(١) رواه البخاري (١٩٠٤).

معذورًا، وهذهِ طبيعة في الإنسان، فلربما نظر المرءُ إلىٰ طبق الفاكهة فأغراه ذلك، لكنه لن يبلغ حقيقة لذته حتىٰ يتذوقه ويدخله فمه، وأي شدةٍ أشد من القصاص إلا أن الله سبحانه قال في ثمرته: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، فتلك الحياة الآمنة المطمئنة لن يبلغها المجتمع ما لم يُقِم القصاص وجميع أحكام الله، ولا يصح أن يقام القصاص وحده دون أحكام الله الأخرىٰ، فإنه لو أقيم القصاص وحده دون إغلاق أبواب الإجرام لهلك المجتمع، فما القصاص إلا وحدة صغيرة في منظومة رحمة كاملة، ولا يقام القصاص إلا بشروط مشددة ويكفي أن تعرف أن حد السرقة لم يقم في خلال الثلاثين سنة الأولىٰ إلا مرة واحدة هذا ما سجله التاريخ بإسناد صحيح فإن زاد فإنه لم يبلغ إلا عدداً محدوداً جداً في مجتمع امتد من النيل إلىٰ الفرات بل أكثر...؟

وإنه إن كان هذا دليلاً علىٰ شيء، فإنما هو دليل علىٰ رحمة الله بعباده، ودليل علىٰ تشديد الشروط في إقامة أي حد من الحدود؛ أفكثير ذلك علىٰ الأمان العام، والله سبحانه يقول ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

❁ فلنتذوق حديث الله سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾:

هكذا تتواصل الدلائل الإلٓهية من كل عبارة وكل كلمة من كلمات الله تبارك وتعالىٰ... حين تتواصل نبرة القرآن التي لا يجرؤ أحد علىٰ التحدث بها

علىٰ الإطلاق إلا الله ﷻ ؛ تلك هي لغة العظمة المطلقة ، لغة الله الأحد إلىٰ كل عبادهِ ، لغة من ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ إلىٰ المخلوقين المأمورين ، لغة من بيده الأمر كله ، وإليه يرجع الأمر كله ، وهكذا تتواصل المعاني العليا في كل كلام الله ، من غير أدني اضطراب أو تناقض ، ومن غير أن تمسها النفس البشرية أي مساس ، ولو مستها لكثرتْ فيها الأخطاء ، والاضطرابات ، وقد قال الله سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ ، فهذا القرآن الكريم معروض منذ أكثر من ألف وأربعمائة سنة ، والناس في إقبالٍ عليه ، والله ﷻ يحثُّ المؤمنين وغير المؤمنين علىٰ النظر والتأمل والتدبر والاستكشاف ، ويعتب علىٰ من لم يستخدم عقله في آيات الله تبارك وتعالىٰ . . . ذلك هو حديث الله ، وإن العظمة المطلقة من هذا الخطاب لا تستنزف . . لا تنقص ، لا تُمَل ، لا تنفر منها النفس ، ويقينها يفيض علىٰ قارئها أكثر وأكثر ، ومهابتها ترتعد منها النفس وتفيض منها العين . . كل ذلك وغير ذلك لا علاقة له بالزمان ولا الأجيال ، لا لشيء إلا لأمة حديث الله رب العالمين ، بل ويتحدىٰ الخلق إنسًا وجنًا ، أن يجدوا أدنىٰ أدنىٰ خطأ أو اضطراب فيه ، والسؤال هو: أكان يفعل هذا من كان يشك أدنىٰ شك في كتابه ؟

ولقد قال القس سيفريدوو رويس: قبل تخرجي في المرحلة الأخيرة من المدرسة المسيحية ، يتطلب منا الاطلاع علىٰ الكتب السماوية ، ليكون القسيس ملماً بجميع الديانات السماوية .

ومن بين تلك الكتب القرآن الكريم الذي كان نقطة تحولي إلىٰ الإسلام ، حيث فتحت أولىٰ صفحاته ، ليسقط نظري علىٰ أول سورة البقرة: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ

ﭐلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾، تنبهت إلىٰ تلك الآية التي لم تكن تقبل التفاوض أو المزايدة، لأن المتعارف عليه عند بداية أي كتاب يبدأ مؤلفه بالاعتذار في حصول التقصير في محاولة أن تُتقبل ما كتب من عبارات، إلا أن ما شدني في تلك الآية هو أنني أمام حقيقة لا تقبل الشك أو الريبة بقوله: «ذلك الكتاب لا ريب فيه».

وقال: «بدأت في قراءة القرآن، إلىٰ أن وصلت إلىٰ معلومات تناقض ما هو موجود في ديني، ما جعلني أرجع إلىٰ القساوسة الكبار في المدرسة، الذين تهربوا من أسئلتي، ونصحوني بعدم قراءة القرآن، كونه من عمل الشيطان، ومن أعمال المسلمين، الأمر الذي زاد من إصراري وحبي لهذا الكتاب لعدة أشهر، مع إيمان أن هذا الكتاب لا يستطيع أي من البشر كتابة ما هو موجود به، من الجمل والآيات الواضحة فيه».

وأضاف «عدت إلىٰ منزلي في يوم من الأيام بعد البحث والتقصي في دين الإسلام، ودعوت الله أن يلهمني الصواب، ويدلني علىٰ طريق الدين الصحيح، وفي تلك الأثناء خرجت من المنزل، لأجد أمامي شخصا يرتدي الثوب، ويسير إلىٰ المسجد، فسألته عن اسمه فقال: سالم باعقيل، وسألته عن ديانته فقال: الإسلام، وإنه ذاهب لأداء الصلاة في المسجد، فذهبت معه دون تردد إلىٰ أن وصلت إلىٰ المسجد، الذي لم أجد فيها طقوسا كما هو موجود في ديانتي، والتي منها تعليق الصور، لأستنتج بأن هذا الدين ليس فيه عنصرية كغيره من الديانات، وأصبحت اذهب إلىٰ المسجد يوميا ولمدة أسبوع دون أن يكلمني أحد، إلىٰ ان جاء أحد المسلمين وأنا جالس في المسجد، وطلب أن يدربني

علىٰ الوضوء ، فظننت في بادئ الأمر أنه يريد تعليمي الـ(voodoo) وهو نوع من أنواع السحر ، يقولها ضاحكاً ، ففزعت كيف أن المسلمين يعلمون السحر ، إلىٰ أن اخبرني أنها تعني الطهارة باللغة العربية ، فرضخت لطلبه ، وتوضأت لأعلن بعدها إسلامي ، ومداومتي علىٰ المسجد ، دون خوف أو تردد] . اهـ .

أرجوك أخي القارئ لا تفوتك ملاحظة هذهِ اللغة الربانية ، التي هي بصمة العظمة المطلقة ، ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ ، إنها الشهادة العلية علىٰ أن هذا الكلام لا يقوله إلا الله تبارك وتعالىٰ . . . وهي ليست ومضة ولا ومضتين ، ولا إشراقة ولا إشراقتين ، ولا لفته ولا لفتتين وإنما هي الحالة الملازمة لكلام الله كله ، فتأمل هذهِ الخاصية العلوية جيداً ، فإنها فوق أن يحيط بها أي كاتب أو متحدث ، وإنما تدركها النفوس ، وتعيشها الأرواح ، وتفهمها المشاعر وتقدرها حق قدرها ، وبها تستطيع أن تفرق ما بين كلام الله وكلام كل من سواه .

فقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ فربنا العظيم سبحانه هو رب الأولين ونحن الآخِرين ، ولذا فقد فرض علينا الصيام كما فرضه علىٰ الأولين ، وكما استجاب الأولون فصاموا لأمر الله رب العالمين ، فيجب علينا أن نستجيب له ، فهو رب الأولين والآخرين . . .

ولو كان ملكًا أو حاكمًا أو نحوهما وفرض أمرًا ثم مات لذهب أمره مع ذهاب هيبته ، لأنه لا أحد يملك أن يفرض بعد موته ، فهذِهِ الآية تقرر بل تقضي بأن الله هو ربنا وربكم ورب آبائكم الأولين ، وأنه مالك الملك كله ، وأنه الحي الذي لا يموت ، وأنه خالق الأولين والآخرين ، وخالق الخلق أجمعين ، وكل

ذلك دون أن تصرح بهذا ودون أن يكون في هذا أدني شك ، ودون أن تنفر النفس من هذا بل تقبل علىٰ ذلك بشوق منقطع النظير ، واشتياق مع إحساس بالشرف والاختصاص ، مصحوب بالحمد والشكر لله ، ولسان حال كل واحد يقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ .

❁ يا أيها الإنسان: تدبر ، وتدبر ثم تدبر:

كما كتب علىٰ الذين من قبلكم

هذا أولًا ثم تدبر الآية ثانية فالله جعلنا نحن وجميع المؤمنين الذين سبقونا إخوة في الله ، فربنا واحد ونحن إخوة في الله ، فأي رباط تنشئه هذهِ الآيات ؟ إنه رباط الإيمان ورباط القلوب ، فهم إخواننا حتىٰ لو ماتوا قبلنا ، أو حتىٰ لو لم يكونوا علىٰ لغتنا ولا أشكالنا ، ولا في بلدنا ، ولا لوننا ، ولا من أمة محمد ﷺ ، وكانوا قبل أن توجد هذهِ الأمة ، فيكفينا هذا الرباط الذي ربطنا ، وهو الذي لا يبلغه غيرنا ، وهو رباط الإيمان ، والأخوة في الله ، فالله ربنا ونحن عبيده ، إنه الرباط الذي يجمع الحقيقة الواقعية ، والطهارة الإيمانية العلوية .

وتأمل ثالثة في قوله سبحانه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فإنك لا تجد فيها التكليف فحسب ، بل تجد فيها تخفيف الله التكليف علىٰ عباده ، نعم هو رب العالمين سبحانه وتعالى ، وهو خالق الخلق أجمعين ، وهو من بيده حياتهم ومماتهم ، وعنده آجالهم ، إلا أنه سبحانه حين كلّفهم بالصيام ، خففه عليهم حين بيّن لهم أنهم ليسوا وحدهم في هذا ، ولا هم

أول من افترض عليهم الصيام، بل هو قاسم مشترك بينهم وبين كل أمم الأنبياء من قبلهم، وبهذا يهون التكليف ويخف، ويتحول أداؤه إلىٰ مسابقة، بينكم وبين الأمم من قبلكم، كما قال الله سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

فكيف لا يخف عليكم أكثر وأكثر إذا كنتم أنتم آخر الأمم في فرضية الصيام... لأن الله سبحانه قال: (كَمَا كُتِبَ عَلَىٰ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ) فأنه ليس من أمةٍ بعدكم فأنتم الآخِرون، ثم إن فيه التحفيز لكم لتقدموا وتتقدموا، حتىٰ تكونوا الأولين وإلا اجتمع عليكم تأخر الوجود وتأخر الرتبة، ولهذا جاء في الحديث عن النبي ﷺ «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة»[1].

ثم تدبر هذهِ الآية الكريمة وكيف ظهر فيها أنه هو ﴿ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ سبحانه وتعالى، ففيها تحديد المقصودين، وقد حصل بقوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ وفيها تحديد الغاية التي يراد لهم بلوغها، وهي في قوله تعالىٰ ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وفيها تحديد الوسيلة التي تبلغهم الغاية وهي قوله تعالىٰ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾، وفيها بيان الجدية والحزم في هذا المشروع وذلك بقوله تعالىٰ ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾، وفيها تهوين الأمر عليهم وتخفيفه عليهم بقوله ﴿كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، وفيها بيان سمو هذا المشروع وشرفه وعلّوه وزكاته، وذلك من

(١) رواه البخاري (٨٧٦).

خلال كل كلمة في هذهِ الآية كما بينا كما أن فيه عظمة ثمرة الغاية وشمولها وأثرها على الفرد والمجتمع وذلك كله في هذهِ الآية وهذا الاشتراك في العمل، والاشتراك في الثمرة، وعراقة هذا المشروع ونجاحه، والرعاية من الله تعالى، مع تضمن الترغيب لمن التزم، والترهيب لمن ترك وأبى، يجعل من هذا المشروع جامعًا كل أسباب النجاح.

❊ الإيجابية في التقوى:

قال سبحانه: ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فما هي التقوى؟

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: التقوى من الوقاية، والوقاية أي أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية.

فكم يحبُّ الله سبحانه عباده جميعًا، لذلك يحذرهم جميعًا، كما يحذر المحب حبيبهُ، والوالد ولده، ليقيه قبل أن يقع، فإنه إن تهاون ولم يأخذ الأمر بالجدِّ الذي يليق به وقع في عذاب الله.. ويا لعذاب الله ما أشده، وقد وصف الله بعض عذابه في سورة الزمر ثم قال بعده: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦].

ولكن التقوى ليست منزلة أخروية فحسب، بل هي منزلة دنيوية في الأساس، قد وضحها الله تبارك وتعالى في أول سورة البقرة فقال سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾،

ولا شك أن أفضل بيان لكلام الله رب العالمين هو كلام الله رب العالمين ، وهذا البيان لآيات الصيام التي وردت في سورة البقرة من سورة البقرة نفسها ومن أولها في معنىٰ المتقين المطلوب. . تأمل وسوف ترىٰ المعنىٰ الإيجابي العظيم للمتقين ، مع أن التقوى في تعريفه في لغة العرب يعتبر من الأعمال السلبية كما قلت فهو الوقاية والحذر من عذاب الله ؛ لكن تأمل آية البقرة ، لتعرف أي نقلةٍ إيجابية نقلت الآيات في معنىٰ التقوي ، ولتعلم أن هذا الكلام كلام الله ، فإنَّ الله سبحانه قال: ﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ ، فالصلاة في الإسلام هي صلة مباشرة ودون واسطة ما بين العبد وبين ربه تبارك وتعالىٰ ، ولهذا كانت الصلاة أعظم دافع للإصلاح في هذهِ الحياة ، وللقضاء علىٰ المنكر ، كما قال تبارك وتعالىٰ عن الصلاة ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ ، أرأيت كيف أن القرآن يبين القرآن نفسه ؟ وبدقة متناهية ؟

ثم تأمل الإيجابية مرة أخرى حيث يقول الله تبارك وتعالىٰ ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ فلقد كانت العلاقة بالله حيث الصلاة التي نهت عن الفحشاء والمنكر دافعًا كذلك إلىٰ رحمة الصائمين العباد والمستحقين للمساعدة ، وغيرهم من أهلٍ وأرحام ، ولكن جاءت الإشارة إلىٰ العدل في الإنفاق ، فهم ينفقون ولكن ليس كل ما رزقهم الله سبحانه ، إنما بعض ما عندهم ، بحيث أنهم لا يفقرون أنفسهم ، وهذا المعنىٰ في قوله ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ .

وتأمل ثانية في المتقين ؛ فإن التقوىٰ تدخل في الإيمان كذلك لتشمل إجابتها المعتقد والعمل جميعًا ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ ، فالتقوىٰ تَنقل المؤمن من خوفٍ في داخله ، وانطواءٍ علىٰ ذاته ، أو تقوقع علىٰ

وطنيته وقوميته وديانته ، إلىٰ الاشتراك في أكرم ما عند الناس في زمانه ، والذين في الأزمنة التي قبله . . . فهل في هذا المنهج تطرف ، أم فيه إرهاب ، أم فيه تقوقع علىٰ الفكر أو الإيمان أو الانكفاء على الذات ؟

ثم قال: ﴿وَبِٱلْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ إن من لم يعرف الإيمان بالآخرة لم يعرف أي انطلاقة يُطْلِقُ الإيمان بالآخرة الموقنين بها خاصة ، والدار الآخرة ليست عذابًا فحسب فهي أشمل من أن تكون عذابًا ، إنها تشمل الجنة والنار ، والعذاب والنعيم علىٰ حدٍ سواء ، فالموقنون بالآخرة هم الذين يجعلون من الدنيا مزرعة للدار الآخرة فإذا حضر ذكر الآخرة لا يُقبل التوقف والسلبية ولا القعود تحسرًا ، بل التوقف والسلبية عند ذكر الجنة والنار منكر ينكره رسول الله ﷺ فيقول: «عجبت للجنة نام طالبها ، وعجبت للنار نام هاربها»[1] ، فهنا الحرث والزرع ، وهناك الحصاد للثمر ، لذلك تجد الموقنين بالآخرة في الليل والنهار مشاريع إصلاح للحياة ، وإحسانٍ للخلق ، وعطاءٍ ، وإنفاق ، مع محبة عظيمة لكل الناس ، لأنهم إخوانهم في الإنسانية ، وهم يخافون عليهم من العذاب ، والرسول ﷺ يقول: «في كل ذي كبد رطبة صدقة»[2] ، فهو ليس إحسان للبشر وحدهم ، بل لكل ما دبَّ علىٰ الأرض حتي الحيوان والنبات ، والمتقون إذ يفعلون ذلك فإنما ينقذون أنفسهم ، فهم مشفقون من عذاب الله فسبحان الله ؛ كيف جمعت كلمات الله النفس من كل أطرافها لتطلقها في العمل البنّاء في الحياة كلها . . . فهل تفكرت في هذا جيدًا ؟ وهل يقول هذا الكلام بهذا الإحكام مع هذا الاختصار بشر ؟ ثم إن الله سبحانه قال ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ سبحان الله ؛ فهذا يعني

(١) رواه الترمذي (٢٦٠١) وحسنه الألباني.

(٢) رواه البخاري (٢٣٦٣).

أن ليس كل من صام أصبح من المتقين ، فالصوم ليس سببًا آليًا يوصل الصائم إلىٰ التقوىٰ ، فقوله سبحانه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ليهيج الله قلوب العباد ، لتتوجه بجد واجتهاد ، وَتطَلُّبٍ من ربها سبحانه أن يجعل ثمرة صيامها التقوىٰ . . . فالتقوىٰ مقام عند الله عالٍ ، والله سبحانه يحفز المؤمنين ليبلغوا مقام التقوىٰ ، بل يحبُّ لهم ذلك ، لكن من بلغ أن يكون من المتقين فقد تقدم نحو مقامات ومنازل عاليه عند الله ، وهذا ما يدفع كل مؤمن أن يكون من المتقين ، والقرآن الكريم فيه الكثير من بيان قيمة المتقين . . فتأمل حديث الله سبحانه عن المتقين في القرآن الكريم .

وانظر ماذا تصنع التقوىٰ ، وأي نوع من الناس يصنعه التقوىٰ ؛ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] وفي الآية الأولىٰ من سورة النساء قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١] وقال سبحانه موصياً الذين آمنوا بالتقوىٰ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] وقال تعالىٰ ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٧] وقال سبحانه ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ﴾ [المائدة: ٢] .

❊ الوصول إلى تقوى القلوب:

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ :

ليست هذهِ العبارة الكريمة كلمة عابرة لتكملة الموضوع ، بل هذهِ الكلمة

التي صنعت وتصنع حياة برمتها . . . مُدَّتها شهر كامل ، تنبني عليها كل الممارسات في الشهر كله ومن بعده في الحياة كلها ؛ فحين يقول الله سبحانه ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ فإن المقصود التقوي في كل مناحي الحياة ، إلىٰ أن تصبح حقيقة في القلب ، فهو مركز التغيير والتحكم للجسم كله ، فلم يبق بعد كل تلك الممارسة العملية إلا بلوغها القلبي ، وبما أن الانسان وحدة واحدة فإن الأثر ينتقل من الباطن إلىٰ الظاهر ، ومن القلب إلىٰ الجوارح ، وكذلك ينتقل من الظاهر إلىٰ الباطن ، ومن الجوارح إلىٰ القلب ، وثمة سلوك تربوي في القرآن اسمه (المجاهدة) ، وفيها يقول الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ فأي مجاهدة مثل مجاهدة الصائم نفسه في شهر رمضان ؟ يكاد يجمع علماء التربية وهندسة النفس الإنسانية وعلماء السلوك أن أسباب التغيير الباطني تنبع من إرادة الأنسان نفسه ، وهل من صُنْعٍ للإرادة مثلما يحدث في شهر رمضان ؟ وفي هذا يقول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ .

ولا توجد بيئة تربوية مثل شهر رمضان ؛ ليس لطوله فحسب ، وإنما لقوة التحكم بالنفس ، وربط التحكم بالنفس بصحة الصيام وعدم صحته ، وبرفعة منزلة الصائم أو انحطاط درجته ؛ فالنبي ﷺ يقول: «قَالَ اللهُ: كُلُّ عَمَلِ ابْنِ آدَمَ لَهُ ، إِلَّا الصِّيَامَ ، فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ ، وَالصِّيَامُ جُنَّةٌ ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ وَلاَ يَصْخَبْ ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ ، فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ»[1] فهو بالإضافة لكونهِ جائع ، وكونه عطشان ، وربما مرهق ، فلو اعتدىٰ عليه أحد بأي

(١) رواه البخاري (١٩٠٤).

قول أو فعل خطأ فليصبر وليرد بأحسن رد وليقل «إِنِّي صَائِمٌ» فهو بهذا يذكِّر نفسه، ويؤدب غيره، ولهذا فإن شهر رمضان كافٍ في إضعاف نوازع الشر في الانسان، وإخماد نيرانها، ولقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «الصَّوْمُ نِصْفُ الصَّبْرِ»[1].

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (٦٣١).

الآية الثانية:

❁ ما بين الآية والآية:

قال ربنا سبحانه: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

❁ كيف يحكم الله الزمان بما أنزل في القرآن:

تأمل بيان الله سبحانه لأحكام الصيام علىٰ عباده، لتعلم أن هذا البيان بهذا المختصر من الكلام مع هذا الكم من الأحكام، وهذا الفيض من الإيمان، لا يقوله إلا الله رب العالمين، وتعلم يقينًا بعدها أن هذا القرآن حق، وأن من أنزل عليه القرآن حق وهو رسول الله ﷺ.

فما من آية منفصلة عن الآية التي سبقتها حتىٰ لو رأيت الفاصل بينهما بعينيك، وحتىٰ لو لم يتبين لك أنت ذلك، لكنك - هنا - في كل مرة ترىٰ الإحكام ما بين الآيتين، وترىٰ المناسبة المنطقية محكمة فتقول من أعماقك: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

ففي الآية السابقة بَيّن الله سبحانه المكلفين بالصيام بشكل مجمل دون تفصيل بقوله تبارك وتعالىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، إذ إن المؤمنين كثير.. فَمَن مِنْ المؤمنين المقصود؟ فكان الجواب في هذه الآية وفيما بعدها، فالآية الأولى تعدت القاعدة وما بعدها جاءت ينبي عليها، فالتأجيل في الآية الأولى والتفريع فيما بعدها.

وأمر آخر مهم هو أنه لا يمكن أن تنفصل الأحكام العملية في القرآن الكريم عن التربية الإلٓهية.. ذلك أن الذي يشرع هو الله رب العالمين، وهؤلاء العباد عباده.. ولا يحب عبادَ الله أحد مثل الله تبارك وتعالىٰ، ولهذا تجد كمية التربية سابغة علىٰ كلِّ الأحكام التي يشرعها الله، حتىٰ علىٰ أحكام القصاص، ولسوف يعرف كل قارئ لآيات الأحكام قبل غيرها، كيف يسوق الله بها عباده إلىٰ معرفته سوقًا، وسوف يرىٰ كيف أن الهدىٰ يتفجر منها تفجيرًا، بل يرىٰ كيف أن الإيمان يفيض علىٰ المؤمنين فيوضًا، فالعاقل يعرف الله في آيات الأحكام كما يعرفه بآيات الإيمان؛ إنه ميزان في كلام الله لا يختل، ولا يميل، فكل إنسان يأخذ من الميزان علىٰ مقدار وزنه وحاجته، وكل وادٍ يأخذ من الفيض علىٰ قدر وادي عقله وسعته، وقد ضرب الله المثل لهذا في سورة الرعد فقال سبحانه: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧]، والنبي ﷺ يقول: «إن مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أحيا به...».

وأمر ثالث وهو أنه في الكلمة الأولىٰ في ابتداء الآية الثانية للصيام أي بعد إتمام تشريع الصيام يخفف الله تبارك وتعالىٰ عن الناس ثقل الصيام وكونه شهرًا بأكمله، ويهوِّنه، ويُقلِّله فيقول سبحانه: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾، وهذهِ ليست كلمة تخفيف لهذهِ الفرضية فحسب بل هي الحياة الشعورية التي يشعر بها كل من يصوم شهر رمضان، فإنها حقًا ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾، قليلات خفيفات تمرّ علىٰ كل مسلم سريعًا سريعًا، حتي يقول كل مسلم بعد مرور اليوم العاشر من

رمضان مثلًا ما شعرنا إلا وثلث الشهر قد مضي، ثم يقول كل واحدٍ عند أواخر أيام شهر رمضان: عجيب والله كيف انتهي شهر رمضان، وتسمع طوال الشهر من الصغار والكبار والنساء والرجال عبارات الاستغراب عن سرعة مرور الشهر وانقضاء أيامه ولياليه، وهذهِ المشاعر لا يمكن أن يتحكم بها بشر ولا الفرد نفسه في نفسه، إنها الشهادة العامة التي يجمع عليها أهل الصيام في كل مكان، وهي الشهادة العملية بأن تشريع الصيام إنما هو من عند الله سبحانه لأنه لا يملك تخفيف الجوع والعطش الفطري، ولا تخفيف مرور الزمن علىٰ الإنهاك، وتسريعه في شعور كل صائم إلا الله تبارك وتعالىٰ.

ولك أن تجرِّب كيف أنه إذا تأخر موعد غداء أحدنا عن المعتاد ساعة أو ساعتين كيف تتوجع بطنه وتثور أعصابه... بينما في رمضان يبقي كل يوم حتىٰ آخر النهار شهرًا كاملًا، وهو لا يشعر كيف مرّ الشهر، وهذا يدلك علىٰ أن من شرع الصيام علىٰ الخلق هو من خلقهم، وأنه كما قال سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وأن من قال: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ هو من خففه وقال: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾.

وهذهِ الشهادة لا يمكن أن نتهاون بها أو نَعْبُرَ عليها عبورًا سريعًا، ثم هي ليست شهادة فرد واحد ولا فردين وإنما شهادة الملايين من الصائمين.. اللهم إلا المرضىٰ بل شهادة المرضىٰ أعظم، ثم إن المرضىٰ أنفسهم غالبًا ما يتحايلون لئلا يفطروا في رمضان وإن نصحهم الأطباء بالإفطار.

والسؤال هو: هل يملك أي واضع قانونًا أن يحكم ظاهر الناس كما يحكم النفس من الداخل، أو يحكم الظاهر والباطن ويجعلهما يسيران معًا، ولكن من

لم يعش صائمًا شهر رمضان مرة... يصعب عليه أن يدرك هذا، بل أقول: يا حسرة علىٰ من عاش طويلًا في الدنيا ولم يعش شهرًا واحدًا صائمًا رمضان، إنه لذة الروح وفيه سعادة لا توجد إلا فيه.

وها أنذا اليوم قد صمت شهر رمضان أكثر من خمسين مرة، وهذا الذي أقوله شاهدته في نفسي وفي كل من حولي رغم اختلاف الأجواء والبلاد التي صمت فيها واختلاف طبائع البشر إلا أن أثر رمضان واحد.

❁ دين ملّك العقل:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: جاءت هذهِ الآية الكريمة لا لتبين المكلفين من المؤمنين، وإنما لتبين المعذورين منهم، فبينت أن المسافر معذور، وأن المريض معذور، وأن العاجز لأي سبب معذور، والعاجز إما لمرضٍ، أو هرم، أو مشقة مع عملٍ لا يطيقه، أو نحو ذلك فكلهم معذورون... فإذا كان هؤلاء هم المعذورين فمن بقي سواهم فهم المكلفون.. فالله سبحانه بين الأصل ثم استثنىٰ من ذلك الأقل ليبقي الأصل الواسع علىٰ عمومه.

ومن يجب عليهم الصوم هم المؤمنون، البالغون، العاقلون، المقيمون، ومن سواهم فلا يجب عليهم، **فتكليف الله بالصيام لعبادهِ لابُدَّ له من العقل**، فلا يقبل صيام من غير عاقل، وهذا أعظم دليل علىٰ مكانة العقل في دين الله تبارك وتعالىٰ فهو دين العقل، ولذا فإن المجنون معذور، والله يرفع عنه التكليف كله، والقاعدة تقول (إذا سلب ما وهب رفع ما وجب)، وهذا مما يدل علىٰ أن الله تبارك وتعالىٰ لا يقبل العمل إلا إذا كان العقل حاضرًا عند الإنسان، ولا يعتبر

الإنسان أهلٌ بغير عقل ولهذا قال الله سبحانه حين حرَّم الخمر في المرحلة الثانية من مراحل تحريمها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾ ومن ثم فإن إيمان المُكره لا يقبل، وطلاق المكره لا يُعْتدُّ به، وكل تصرفات المكره لا تقبل، فلو أن بلدًا دخل في الإسلام تحت إكراه الجيش المسلم، لم يقبل إسلام هذا البلد، ولا يعتبر أبدًا، ودليل هذا قول الله تبارك وتعالىٰ: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، عنِ ابنِ عبَّاسٍ قالَ: كانَتِ المرأةُ تَكونُ مِقلاتًا فتَجعَلُ علَىٰ نفسِها إن عاشَ لَها ولَدٌ أنَّ تَهوِّدَه فلَمَّا أُجليَت بنو النَّضيرِ كانَ فيهِم مِن أبناءِ الأنصارِ فَقالوا لا نَدَعُ أبناءنا فأنزلَ الله ﷻ ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾.

فإن قلت: وأين الدليل علىٰ أن العقل شرط لصحة الصوم؟ كان الجواب واضحًا ومسلَّمًا من نفس الآية، فإن في صدر الآية خاطب الله المقصودين بشكل محدد فقال ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وهل يعي الخطاب من لا يعقل؟ حتىٰ لو كان من الذين آمنوا؟!

ثم إن الإنسان بعقله، فإذا ذهب العقل ذهب التكليف، فالعقل هو سبب تكليفه كإنسان التكليف والصحة، بينما أي مرض من الأمراض العضوية لا يذهب عقل الإنسان في العادة، فذهاب العقل أشد الأمراض، فإن غير العاقل من الناس ـ من جهة أخرىٰ ـ هو أحوج الناس إلىٰ الرحمة والشفقة والرعاية والعلاج، فهو معذور في ترك الصوم، ومراعىٰ ومرحوم من أهله ومجتمعه فهذا هو الدين الذي حرّر العقل البشري مما تلوث به من خرافات وأوهام، وما

استعبده من تأليه مخلوقات وأحجار وأشجار وجمادات، إنه الدين الذي ملَّك العقل أي جعله ملكًا والنبي ﷺ يقول: «ألا إنَّ في الجسَدِ مضغةٌ إذا صلُحتْ صلُحَ لها سائرُ الجسدِ، وإذا فسدت فسد لها سائرُ الجسدِ، ألا وهي القلبُ»، ورب العالمين دائمًا يخاطب العقل وفي هذا أعظم تكريم له، **وهذا القرآن بين يديك، اقرأه، افهمه، ولن تجد القرآن يصدم عقلك مرة واحدة بتناقض واحدٍ أبدًا**، وقد جعل الله سبحانه هذا الأمر علامة قاطعة علىٰ صدق أن هذا القرآن من عند الله وحده، كما مرّ معنا في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾، وقوله سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾.

وقد أحال الله غير المؤمنين علىٰ العقل، وطلب منهم إعمال عقولهم، وتحكيم عقولهم، ونعىٰ عليهم وجود هذهِ النعمة عندهم ثم هم لا يستخدمونها في معرفة من أنعم بها عليهم، وفي شكره سبحانه فمن ذلك أنه قال عن الشيطان: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ [يس: ٦٢]، وقال للمشركين وهو يحدثهم عن قوم لوط وفعلهم المشين: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧ ـ ١٣٨]، وقال: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣]، وقال: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ

بِهَآ أَوۡ ءَاذَانٞ يَسۡمَعُونَ بِهَاۖ فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال: ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، والآيات كثيرة ومتنوعة وعميقة.

إنّ الرحلة مع القرآن هي رحلة متعة العقل، وتطهيره من الأدران، وتزكيته والانطلاق به إلىٰ آفاق لا يمكن أن يدخلها ويراها بغير القرآن... فاصطبر.

❊ التقوى هو الحارس الأمين وهو الثمرة:

﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾: إنك أول ما تقرأ هذهِ الآية الكريمة يلفت انتباهك أن الذي يحكم هو الله تبارك وتعالىٰ قطعًا؛ لأنه سبحانه بعد ما ذكر أن غاية الصيام التقوىٰ أَوْكلَ للعباد تطبيق ما سيذكره لهم من أحكام تفصيلية للصيام... فأداؤهم للصيام لابد أن يكون أدق ما يكون، وأحسن ما يكون، كيف ومعها المراقبة الذاتية، التي هي ثمرة الصيام، وهي التقوىٰ، فإن قلت: هم لم يصوموا بعد حتىٰ يكونوا من المتقين فكيف تكون التقوىٰ حارسًا علىٰ التطبيق؟!

والجواب: أن الصوم ذاته تربية عملية يومية علىٰ التقوىٰ، فهو الذي ينشئ التقوىٰ، والتقوىٰ فيه ذاتية، وإلا فما الذي يجعل الصغير إذا صام لم يشرب ماءً في خلوته، وما الذي يجعل الرجل إذا خلا بامرأته لا يجامعها، وما الذي يجعل من يتمضمض وهو صائم في حذر أن تصل قطرة إلىٰ جوفهِ اليابس، خشية أن يفطر، وما الذي يجعله لا يأكل بعد طلوع الفجر بلحظة، كما لا يأكل أو يشرب قبل غروب الشمس بلحظة... وهكذا حياته طوال الشهر بأكمله... أوليس هذه أعظم ممارسة للتقوىٰ وتربية عملية... فكيف لا يوكِلُ الله لهم أداء الصيام

وحراسته لأنفسهم من أهواء أنفسهم... فهل يمكن أن ينشئ التقوىٰ شيء، مثلُ الصيام؟

ومن ثَم اختص الصيام لله، خالصًا صافيًا ناصعًا في أصل تشريعه، وفي تفاصيل تشريعه؛ ولهذا ورد في الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «كلُّ عملِ ابنِ آدمَ له؛ إلا الصومَ، فإنَّه لِي وأنا أجزي به»[1].

❋ التوزيع الرباني للأحكام:

أيها الانسان: أرأيت الآن كيف التناسق بين الآية والآية بل بين الكلمات؟ أيمكن أن تكون كل هذهِ المعاني المتناسقة بهذا الإحكام إلا في كلام الله وحده؟

ثم تأمل كيف عرض الله تبارك وتعالىٰ الأحكام ووزعها علىٰ الناس، وكيف راعي في التشريع أنواع الناس، ولم ينس أحدًا ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾، وكيف ربَّىٰ عباده بهذهِ الأحكام، هذا وهي أحكام تكليفية.. وكل ذلك في آية واحدة كريمة فقال سبحانه: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وكلها علامات هداية، تدل علىٰ وحدانية الله تبارك وتعالىٰ؛ وأما العلامة الأولىٰ: فإنه الحزم والحسم في هذا التشريع: فإنك إذا نظرت في الناس ستجدهم إما مسافر وإما مقيم، فالمسافر معذور لا تجب عليه فريضة الصيام، وتجد المقيم منهم إما سليم، وإما مريض، والمريض معذور، لا يجب عليه

(١) رواه البخاري (١٩٠٤).

الصيام، ومن أصعب أنواع المرض ذهاب العقل.

❊ الرحمة هي أساس كل شيء:

وثاني هذهِ العلامات هي: أن أحكام الله مبنية علىٰ الرحمة، والإعذار، والتيسير، والتحبيب، فتأمل هذهِ الآية لترىٰ فيها دلائل وحدانية الله، ورحمة الله، وودَّ الله لخلقه، وإعذار الله لهم؛ تأملوها جيدًا ولا حاجة لأحدٍ بإيضاح مني، ولا من غيري؛ ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُ وَأَن تَصُومُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٤].

فالله سبحانه حين خفَّفَ شهرها فقال: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ﴾ ربما ظن البعض أن الصوم يَلْزَم الجميع، وقال: أن الله سبحانه خففها بهذهِ الطريقة فلا عذر لأحدٍ بتركها، هنا نفي الله سبحانه هذا الفهم، فإن ثمة واقعًا يجب أن يراعىٰ، وهم أُناس لا يستطيعون أن يحملوا، ولا يحتملوا حتىٰ الخفيف، وهم المرضىٰ، والمسافرون، فالمريض يحتاج إلىٰ من يحمله ويعينه، فكيف يحمل الصيام، والمسافر محمول كذلك، وكثيرًا ما يصادف في سفره المشاق، والمجهول، وكما ورد في الحديث: «السفر قطعة من العذاب»[1].

ثم إن الله سبحانه رفع بعد هذا وجوب الصوم عن كل عاجز عن الصيام، حتىٰ لو لم يكن مريضًا ولا مسافرًا مثل العاجز لكبر سنِّهِ، أو العاجز لسجنه أو العاجز لأسره، أو نحوهم ممن لا يستطيعون، وفوق هذا تبقىٰ هذهِ العبارة

(١) رواه البخاري (١٨٠٤).

الكريمة ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ بابًا مفتوحًا يسع جميع الظروف، المختلفة باختلاف الأزمان والأماكن والأحوال... فهل رأيت تكليفًا مصحوبًا بالرحمة والرعاية والشفقة مثل فرضية الصيام؟ وهل رأيت دليلًا على الله تبارك وتعالى مثل هذا الكلام الكريم الجامع المانع حتى وهو يفرض آيات الأحكام؟





❊ الحب المتبادل:

فقال سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾: وليس هذا فحسب ولكن انظر إلىٰ ختام الآية؛ حيث إنه يبقىٰ بعض الناس من هؤلاء المسافرين، والمعذورين من الصيام، يستطيعون الصيام دون إضرار بأنفسهم، وهم يحبون ذلك، ويصعب عليهم الإفطار في نهار رمضان أشد صعوبة ـ كما هو مشاهد في المسلمين ـ، فهم من حيث إنهم معذورون فهم معذورون، ومن حيث إنهم قادرون فهم قادرون، فهل يأخذون بالعذر أم يصوموا الشهر وما يستطيعون منه؟

ومع أنها مسألة تبدوا أنها هامشية ونفسية فإن الله تبارك وتعالىٰ لم يهملها، أو يتهاون بها أو يحيلها علىٰ رسولهِ ﷺ، بل يُعظِّم شأنها، فمن ذا يعلم بمشاعر الناس إلا ربهم سبحانه، ومن ذا يقِّدر هذهِ المسألة وأثرها النفسي إلا الله تبارك وتعالىٰ، لذا تولىٰ الله سبحانه الإجابة عليها.

فإن اشتياق المسلم لشهر رمضان لا يعرفه إلا المسلم، حتىٰ لو كان صغيرًا بعمر العاشرة، أو الثانية عشرة، أو الرابعة عشرة، أي قبل أن يفرض عليه الصيام لعدم بلوغه، فكيف إذا كان كبيرًا وأصبح معذورًا، وقال له الطبيب: لا تستطيع الصيام، وتستطيع الإفطار فأنت معذور مرخوص، ولكن إن أردت أن تصوم فتستطيع... إن الحنين الذي يعيشه الشيخ الكبير للصيام حنين جارف، لا تقف أمامةَ نصيحة الأطباء، ولا الأبناء، بل ولا حتىٰ خطر الموت الذي يتهدده إن صام، وقد رأيت والدي رحمه الله ـ وهو واحد، من هؤلاء المرضىٰ حاله في ذلك حال كل المسلمين المسنين ـ ينظر إلىٰ الطبيب نظر شزْر حين قال له: لابد أن

تفطر! فأجابه الوالد: وماذا إذا لم أُفطر قال له يزداد مرضك، قال: ثم ماذا؟ أليس آخر الأمر الموت، فيا مرحبًا بالموت وأنا صائم، الله أكبر: تريدني الآن أفطر شهر رمضان... لا والله لا أفطر، انتهىٰ كلام الوالد رحمه الله.

هذه هي صورة واحدة لحب شهر رمضان في قلوب المسلمين... ولهذا أقول لا يعرفها إلا المسلمون أنفسهم، بل لا يعلمها علىٰ حقيقتها إلا الله، ولهذا جاء جواب الله علىٰ أولئك المتلهفين علىٰ رمضان ممن هم معذورون بالإفطار ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ﴾، وقطعًا فإن المقصودين هنا ممن لا يضرهم الصوم إذا صاموا، نعم إن الله سبحانه لا يقبل من الإنسان أن يضرَّ نفسه، أو يؤخر بُرؤه، أو ما إلىٰ ذلك، وهو سبحانه القائل: ﴿وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمۡ رَحِيمٗا﴾، وإذا ما جاء العلم الشرعي الصحيح، والطبيب المتمكن الأمين، اقتنع المؤمن واستسلم، حتىٰ وإن كان شيخًا كبيرًا تعوَّد الصيام، فإن هؤلاء المعذورين كلهم إنما غايتهم هي مرضاة الله تبارك وتعالىٰ، فإذا علم أنه إذا صام وأضرّ نفسه أغضب الله وأَنَّ الفرض عليه هو الإفطار أفطر، وهذا الذي عَمِلناه مع والدنا رحمه الله وأفطر فعلًا، وخصوصًا أن عنده مجموعة من الأدوية، يجب عليه أن يأخذها في نهار رمضان.

بل إن الرسول ﷺ يبين قاعدة رحمة عظيمة وعامة في مثل هذا الأمر، فيقول: «إذا مرِض العبدُ أو سافَرَ كُتِبَ له مِثلُ ما كان يَعمَلُ مُقيمًا صَحيحًا»[1]، فالأجر ليس للعامل فقط، ولكنه للمعذور، الذي كان يعمل، والآن لا يستطيع، وليس الأجر ناقصًا كما هو للمتقاعدين، بل الأجر كاملًا، كما كان يوم أن كان

(١) رواه البخاري (٢٩٩٦).



من العاملين ، ولعلك الآن تعجب كيف أن المؤمنين يحسبون هذا الشهر كل هذا الحب ، لكن العجب يزول إذا علمت أن هذا الحب إنما جاء ردًا طبيعيًا وضروريًا لحب الله لهم ، والذي لا يماثله حب ، إذًا فحب الله هو الأول ، وهو السابق ، وهو الحب الأعظم ، كما قال الله عن المؤمنين التائبين الذين ذكرهم في القرآن ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ ونَظَر الناس وقياساتهم تقول «تابوا فتاب الله عليهم» ولكن الحقيقة مع رب العالمين تختلف ، ثم هو لبيان هداية الله سبحانه لعبده ومحبة الله لعبده ، ولولا فضل الله علىٰ عبده لما تقدم لكل تلك الخيرات ، وهو كما يقال في بعض البروتكولات (جاء بناءً علىٰ رغبة من صاحب الدعوة ، أو رغبة ملكية أو أميرية أو بناء علىٰ رغبة إدارة الجامعة أو نحو ذلك) ، وما كان لهم أن يبادلوا حبَّ الله إلا بحب بما يستطيعون حتىٰ وإن شق عليهم نوعًا ما ، فإن لسان حالهم يقول: فليشق علينا ربنا فما دام في ذلك رضاه فهو أحب إلينا من أنفسنا ، فكيف والصيام كله رحمة وفوائد كما سيأتي معنا ذلك بإذن الله تعالىٰ.

إذًا حب الله سبحانه لهم هنا ظاهر ، كما هو في الآية ، وهو متوافق مع ما يقذفه الله في قلوبهم حقيقة في شهر رمضان ، كما ذكرت ذلك آنفًا ، وهكذا اجتمع هنا الخلْق والأمر كما قال سبحانه ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ ، وهكذا يتكرر معنا هذا الأمر ثانية في نفس الآية الكريمة ، وهذا لا يتصوره إلا مؤمن ، ولا يملكهُ أحد إلا الله ، إذ كيف يفيض حبه من كلامه سبحانه في خطابه للمؤمنين فيستقر في قلوبهم وارواحهم ، وكيف يتطابق هذا مع قذْفه حبه وحب طاعته في قلوبهم ، في نفس الوقت ، في هذا الشهر الكريم ، حتىٰ لكأنهم لا يملكون أنفسهم ، من شدة حب الصيام في شهر رمضان.



❊ المسئولية الشاملة للجميع:

قال سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ﴾.

إن من يصوم ومن لا يصوم لا ينفلت من المسئولية المطلقة؛ فإن الصيام في شهر رمضان هو الحكم الأول وهو الأصل، فمن لم يستطع الصيام وجب عليه التزامٌ آخر؛ إما القضاء للصيام نفسه متىٰ استطاع في الأشهر الأخرىٰ كما قال سبحانه: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، وإما الفدية، وقد قال فيمن لا يستطيعون قضاء الصيام بالصيام ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖ﴾.

فهذا هو التيسير وهذا هو الحسم في وقتٍ واحد، وهذهِ هي المسئولية لكل فردٍ بالغ عاقل في المجتمع دون استثناء، وهذا هو الشمول والعدل للرجال والنساء علىٰ حدٍ سواء، فالكل مسئول وكل واحدٍ موكول لنفسه محاسبة نفسه، وتقدير الحكم الذي يلزمها، وإذا ما تأملنا في المعذورين وما يلزمهم بعد رمضان، نجد أن الواجب عليهم في الأساس هو الصيام؛ وهذا بغير شك أَوْلىٰ فالصيام بدل الصيام، وأما من لم يستطع الصيام بعد رمضان فيلزمه إطعام مسكين واحد عن كل يوم أفطره ولهذا البديل حكمة بليغة وغاية مهمة؛ فإن من غايات تشريع الصيام مشاركة الجائعين جوعهم، والمساكين مسكنتهم وعناءهم وفقرهم، فلما لم يستطع المعذور الصيام في رمضان، ولا بعد رمضان، لزمه إطعام مسكين واحد علىٰ الأقل عن كل يوم أفطره، ذلك أن المسكين في الحقيقة هو من يعيش دهره ما يعيشه الصائم في رمضان وحده.

ثم إن كفارة الإطعام إنما هي رزق للمسكين، الذي يعاني أكثر في

رمضان ، وذلك برفع حاجته في شهر رمضان خاصة ، وتنبيهًا علىٰ عنائه في بقية الأشهر ، فكان رمضان هو شهر المساكين بحق ، ولهذا كان فرح المساكين فيه مضاعفًا ، وكم استكفىٰ مساكين طوال العمر بسبب شهر رمضان ، ثم إن في كفارة الإطعام بدلًا عن الصيام تكاملًا ، كتكامل من لم يستطع أن يصبح عالمًا فليكفل عالمًا ومن لم يستطع حفظ القرآن فليكفل حافظًا أو مُحفِّظًا ، وهكذا في كل الشئون الحياتية ، بل في هذا التكفير وهو الاطعام بدل الصيام تحوُّل من العمل القاصر علىٰ النفس إلىٰ العمل المتعدي نفعه للمجتمع . . . ثم إن من يصوم وكان رب أسرة ، أو كانت ربة البيت ، أو كان الأخ الأكبر ، يستحب له أن يعلِّم الفتيان والفتيات في بيته الصيام ، وعادة ما يتعلم أهل البيت بالقدوة ، ولو عاش غير المسلم يوماً واحداً في بيت مسلم لرأىٰ شيئاً عجباً في الاجتماع علىٰ الطعام ، وحسن الآداب في الطعام وغيره ، ومنها خلق الإيثار ، ومع هذا فغاية الجميع هو أن يرضىٰ عنهم رب العالمين ، ورضىٰ رب العالمين عليهم منوط بعمل الخير ، ومنه الصيام ، وبر الوالدين ، والإحسان للخلق ، وهذا ما ينشأ عليه الصغير في رمضان في الأسرة ، والنبي ﷺ يقول: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، فَالإِمَامُ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالرَّجُلُ فِي أَهْلِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ ، وَالمَرْأَةُ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا رَاعِيَةٌ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا ، وَالخَادِمُ فِي مَالِ سَيِّدِهِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»[1] .

فهل يقدر علىٰ مراعاةِ كل هذهِ الحِكَم بشر ؟ أيًا كان ؟ وكل هذهِ وغيرها في هذهِ الكلمات المعدودات من كلمات الله تبارك وتعالىٰ ، وصدق الله إذ قال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ .

(١) رواه البخاري (٢٤٠٩).

❋ قيام الإسلام وأحكامه كلها على العلم:

فقال سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ﴾:

هي أن هذهِ التشريعات التي رأيناها كلها قائمة على العلم، في كل جزئية من الجزئيات، حتى إن المسلم لا يمكنه إرضاء ربه إلا أن يطلب العلم، وعليه أن يتعلم، هذا ولا يعذر أحد بجهله، ما دام مقصرًا في طلب العلم، أو معرضًا عنه، فإنْ جَهِلَ وجب عليه الرجوع لأهل العلم، أو كما سماهم الله تبارك وتعالى أهل الذكر، فقال سبحانه: ﴿فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾، وقال سبحانه: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾، وهذا ما يبين لكل واحدٍ، أن هذا الدين قائم على العلم، لا على الجهل، وأن الخرافة والجهل لا مكان لهما في هذا الدين أبدًا، وأن من لم يَسْأل عما لا يعلم في أي شيء من العلوم النافعة، ووقع في الخطأ فهو مؤاخذ، بل إن أي عالم سُئل فلم يُجِبْ وهو يعلم عما سئل فإنه معاقب عقابًا عظيمًا، حتى قال النبي ﷺ: «مَن سُئِلَ عن عِلمٍ يَعْلَمُه فكتَمَهُ، أُلجِمَ يومَ القيامةِ بلِجامٍ مِن نارٍ»[1] وقال: «الساكت عن الحق شيطان أخرس»، والمنهجية العلمية في هذا الدين ليست في أحكام الصيام فحسب، إنما هي في كل الأحكام، والقرآن بحر العلوم حتى قال الله سبحانه مبينًا عظمة ما فيه من العلوم ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا

(١) رواه البخاري (٣٦٥٨).

﴿صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١٠٩ ـ ١١٠].

أما غير الإسلام من الشرائع السماوية، فكلها قائمة علىٰ العلم كذلك، إلا أن التحريف البشري داخلها فدخلها الجهل، وغزاها التخريف، وذلك بدخول عقول البشر وأهوائهم فيها، ولأن الأصبع البشري الخبيث حرف المصادر نفسها وزورها، ولو نظرت في الأناجيل الأربعة الموجودة اليوم فإنك لن تجد إنجيلًا واحدًا يطابق الاناجيل الثلاثة الأخرى... هات أي قصة واردة في الأناجيل الأربعة ولن تجدها متطابقة مع الأناجيل الأخرىٰ في سياقها ولا في أحرفها، ولو أنك سألت: كم إنجيلًا أنزل الله من السماء علىٰ عيسىٰ ﵇؟ لكان الجواب: إنجيلًا واحدًا؟! والسؤال هو: فكيف يتعدد وهو إنجيل واحد في أصله؟!

هل من جواب؟ لا، إلا أنه التحريف الذي وقع بعد عيسىٰ ﵇، حتىٰ وصلت الأناجيل إلىٰ مائة انجيل، وما ظهرت الأناجيل الأربعة وأعلنت علىٰ الناس إلا بعد قرابة الثلاث مائة عام، لأن الظروف السياسية لم تكن تسمح للنصارىٰ بإظهار دينهم أو كتابهم، وخلال هذه المدة الطويلة ذهب الانجيل وحرف ما تبقىٰ منه، مِنْ رفع الله لعيسىٰ ﵇.. وهذهِ آيات الصيام التي بين يديك لم يتغير منها حرف واحد منذ أُنزلت، كما هو شأن القرآن الكريم كله، ففي بعض المكتبات مخطوطات للقرآن الكريم منذ العصر الأول حتىٰ هذا اليوم وهي متطابقة تمام المطابقة مع آخر الطبعات في هذهِ الأيام... فهل يستطيع بشر أن يحفظ كتابه هذا الحفظ منذ أكثر من ألف وأربعمائة وخمسون عامًا، وخصوصًا إن كان له أعداء.. وخصوصًا إن كان أعداءهم الملأ الذين يملكون المال والقوة والقرار، فكيف إذا كان هو محور بقاء أمة محمد ﷺ في كل فترة من فترات



حياتها فحفظه ليس ناتجًا عن إخفاءه وعدم العلم به ونسيانه!

فإن قلت: لِمَ لمْ يَحفْظ الله كتابه الكريم الذي أنزله علىٰ موسىٰ عليه السلام أو كتابه الكريم الذي أنزله علىٰ عيسىٰ عليه السلام بينما حَفِظَ القرآن الكريم وحده؟

كان الجواب: هو أن الله لم يتكفل بحفظها، ولا يوجد في أي كتاب منها آية واحدة تدل علىٰ أن الله تعالىٰ تكفّل بذلك بينما تكفل الله تعالىٰ بحفظ القرآن الكريم حفظًا كاملًا شاملًا حيث قال سبحانه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾.. وليجرب أي إنسان اليوم ويطوف الأرض كلها بلدًا بلدًا وقرية قرية ومكتبة مكتبة ولن يجد مصحفًا واحدًا يختلف عن آخر في حرف واحد.. إنه التطابق المطلق، فهل من دليل أعظم علىٰ أن الله وحده هو من حفظ كتابه الكريم، ثم إنه لما كانت شرائع الأنبياء مقتصرة علىٰ زمانهم وموطنهم، فلم يتكفل الله تعالىٰ بحفظ الكتب إذا لا حاجة لذلك، ولكل زمان ومكان، من عصر النبي صلى الله عليه وسلم وإلىٰ قيام الساعة.

وأعود الآن ثانية لأبين من خلال هذهِ الآيات كيف حرفت الأحكام التي في الأديان الأخرىٰ تحريفًا مشينًا بعد تحريف الأصول وهي الكتب السماوية الكريمة نفسها، ففي آية الصيام قال الله تبارك وتعالىٰ في أولها ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

والأصل في قوله (كَمَا) التماثل بأعلىٰ درجاته، وأعلىٰ التماثل المطابقة، وسوف نعرف بعد قليل وصف الصيام وكيفيته وأنه يحرم علىٰ الصائم الطعام والشراب والجماع بشكل كامل... فهل تجدون الصيام بهذهِ الكيفية موجود عند

اليهود أو عند المسيحين أو غيرهما من الملل.

أليس هذا دليل واضح علىٰ أن التحريف عند الأقوام الأخرىٰ والملل السابقة قد بلغ الأصول والفروع؟

وهنا جاءت حكمة الله في حفظ الكتاب الأخير... نعم لأنه الأخير، ولأنه المؤيد للكتب التي أنزلها الله قبل ما تُحرف، والملزم لكل مؤمن الإيمان بها، ولأنه الشامل والمهيمن عليها كما قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة: ٤٨].

❁ لأنه كلام الله... فسبحان الله:

وأمر آخر يدلك ويهديك إلىٰ أن هذا الكلام إنما هو كلام الله تبارك وتعالىٰ، وهو هذهِ الآيات المعدودات في الصيام، **فإنها الأصل في فرضية الصيام، وأن كل ما تجده من أحكام للصيام فهذهِ الآيات هي الأصل الأول فيه**، وقد بلغ شرح أحكام الصيام المجلدات، فضلًا عن الدروس التربوية والإيمانية من الصيام، وهذهِ الآيات رغم كل ما كتب فيها واستخرج منها فإنها ما زالت تفيض علمًا وتفيض هدىٰ، وما هذا الذي أكتبه هنا إنما هو من فيض الهدىٰ خاصة، ومع هذا فبحارها تتفجر.

فإنه لا يمكنك وأنت تنظر في هذهِ الآيات المعدودات إلا أن تُسبِّح الله تبارك وتعالىٰ ، علىٰ هذا الكلام الكريم ، الذي قال الله ﷻ عنه ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١] ، وقال سبحانه عنه: ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ ، ولا يحسبنَّ أحد أن هذا الهدىٰ في أحكام الصيام خاصة ، بل هو في كل ما قاله الله تبارك وتعالىٰ في القرآن العزيز ، فانظر في أحكام المواريث مثلًا ، في القوانين الوضعية وفي الدستور الأمريكي ستجده مجلدين عظيمين بينما آيات الإرث في القرآن الكريم لا تتجاوز آيات معدودات وهي أقل من ثلاث صفحات بخطٍ كبير ، لو جمعت.. فإذا ما قارنتها بالقانون الأمريكي في الميراث رغم ضخامة مجلداته إلا أن الآيات الواردة في الميراث تشمل كل المجلدات بل تجدها غطت كل حالات الإرث في المجتمع مما لم تذكر بعضها المجلدات الأمريكية... فهذا وضع البشر وهذا هو كلام الله ﴿وَلَقَدۡ صَرَّفۡنَا فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لِيَذَّكَّرُواْ وَمَا يَزِيدُهُمۡ إِلَّا نُفُورٗا﴾ [الإسراء: ٤١] وقال سبحانه: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ [النمل: ٧٦]

فهل يسع إنسانًا عاقلًا أن يقارن بين كلام الله وكلام سواه؟ وهل لو كان هذا القرآن من عند غير الله تبارك وتعالىٰ يمكنه أن يجمع هذا الاختصار مع الشمول؟

الآية الثالثة:

قال ربنا سبحانه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

❊ ما بين الآية والآية هداية:

إذا لاحظنا الآيات السابقة وجدنا أن الله سبحانه بيّن فرضية الصيام في الآية الأولىٰ، وبين أنه أيامًا معدودات في الآية الثانية... ولكنه لم يحدد وقته؛ ولم يبين في أي شهر من الأشهر، فجاءت هذهِ الآية الكريمة لتقطع بأن موقعه في العام شهر رمضان كله وليس بعضه، إذًا فهو شهر واحد من اثني عشر شهرًا، والله سبحانه حين عرَّف رمضان عرَّف به معظمًا أمره معليًا شأنه، ذاكرًا أنه شهر، وهو من الاشتهار وانتشار علمه ومعرفة الناس به، بالإضافة إلىٰ فائدة أخرىٰ، وهي أننا حين فهمنا موقعه الزماني فإننا علمنا بالضرورة عدد الأيام المعدودات التي ذكر الله سبحانه، وهي تكون ما بين التسعة والعشرين يومًا والثلاثين يومًا، لأن هذا هو عدد أيام الأشهر القمرية أو العربية، فهل رأيت ترتيبًا منطقيًا وتدرجًا تصاعديًا في مثل هذهِ السلاسة التي في آيات الله، ودون أن تشعر أن هذا الأمر مقصود أبدًا، بينما هو القمة في الإحكام، وبكلمة واحدة هي قوله سبحانه: ﴿**شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ**﴾.



❁ أيها الناس: نحن نعترف بالتقصير نحوكم:

﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ إن هذهِ الآية الكريمة تتحدث في صلب الموضوع الذي نحن فيه، وهو موضوع القرآن، وبالتحديد موضوع أن هذا القرآن ليس حقنا وحدنا نحن المسلمين، إنما هو حق لكل الناس، لأنه هدىٰ، والهدىٰ يحتاجه كل الناس دون استثناء، ومن يهتدي فعليه أن يبلغ الناس القرآن، فالهدىٰ ليس ملكًا شخصيًا، ولا هو إرثًا أهليًا يحتفظ به له ولأهله، ولا هو لبلد مخصوص، ولا لأمةٍ مخصوصة، إنما هو كما قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾، وأَنَا أُعْلِن من هذا الموقع عن تقصيرنا في أداء الأمانة كأمة اهتدت بالقرآن فلم تُبلِّغ هداه للناس كما ينبغي... ومن صور تقصيرنا في تبليغ القرآن للناس لأنه هدى للناس أننا لم نفسر القرآن تفسير هداية للناس، ولم نبين ما نستطيع من أسرار هداية الناس فيه، ولم نخاطب بهذا القرآن العظيم الناس كافة بالخطاب الذي يفهمونه بحيث يفهمهُ كل من لم يهتد من الناس، بل خاطبْنَاهم بما نفهمه نحن، وبالأسلوب التقليدي عندنا، ولم نحدِّث الناس بالقرآن الكريم بطريقتهم التي تسري إلىٰ قلوبهم...

وها قد آن الأوان أَنْ نؤدي لكم حقكم ـ أيها الناس ـ راجين من الله تبارك وتعالىٰ أن يعفو عنا.

وأمر آخر خاص بكم أيها الناس، أما وقد علمتم أن الله ربنا وربكم قد قال ﴿هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ ألا فلتعلموا أن هذا القرآن رسالة الله لكم أنتم كذلك، وليست لنا وحدنا، وأنه لا رسالة في الوجود يمكن أن تُبعْث لكم من أي شخصٍ مثل رسالةٍ من خالقكم تبارك وتعالىٰ لكم، نعم هي والله الذي لا إله إلا هو بهذهِ

العظمة ، فإن القرآن رسالة الله رب العالمين لكم ، رسالة الله التي بقيت كما أنزلها الله دون أدنىٰ تحريف أو مساس أو تلاعب .

فبما أنها حقكم ، والله سبحانه يعلن أنها للناس أي لنا ولكم ولكل الخلق علىٰ حدٍ سواء ، فلا ينبغي أن تتنازلوا عنها ، ولا تحسبوا كذلك أن أحدًا يمكن أن يفهم القرآن عنكم ، ولا أحد يغترف الهدىٰ لكم إلىٰ الأبد ، فأنتم من يباشر الاغتراف من بحور كلام الله تبارك وتعالىٰ فيقول: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧] .

حتىٰ لو كانت مباشرة الاغتراف بمساعدة مِثل هذا الكتاب لإزالة عوائق الفهم فقط من طريق فهمكم للقرآن الكريم .

❁ الربط ما بين القرآن والزمان:

يقول سبحانه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ .

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾: هذهِ الخصوصية ـ وهي ابتداء نزول القرآن فيه من عند الله ـ هي التي رفعت شهر رمضان فوق كل الأشهر . . . فكم هو عظيم هذا القرآن .

وإذا كان القرآن يرفع الزمان الذي حلَّ فيه أول ما حلَّ ، فما بالك إذا حلّ القرآن في فِكْر إنسان وعقله وقلبه ، وما بالك إذا صاحب إنسانٌ القرآن ؟

وإذا كان هذا فعل القرآن من الرفعة والبركة والخير والشرف للزمان الذي

نزل فيه.. والزمان يحوي كل شيء فكيف سيكون فعله فيما يحويه الزمان من الإنس، والجان، والأفراد، والبلدان، والأمم، والأرض ومن عليها، فإن كل هذهِ الأشياء وغيرها يحويها الزمان ولا تحويه... أرأيت أي حكمةٍ حقيقية ذات أثر عملي تغييري بالزمان وبما يحويه، والزمان يحوي ما خلق الله في هذه الأرض، إذًا فإن أثر القرآن سوف يعم كل ما خلقه الله في الأرض لو أنهم أخذوا ما فيه بقوة وجد.

أرأيت أي حكمة تلامس القلوب الإنسانية بذكر الله الشهر الزماني وارتباطهُ بالقرآن، أرأيت أي تناسق وتناسب وتطابق في تعميم حق الناس وشيوعهِ، وشراكتهم فيه بالربط ما بين الزمان والقرآن، فالناس جميعًا شركاء في القرآن، كما هم شركاء في الزمان.

والله سبحانه حين يقول عن القرآن: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾: ألا فليتنبه كل واحدٍ إلىٰ أهمية كلمات الله هذهِ، فإنها تبين أنه لا غنىٰ لأحدٍ من الناس عن القرآن الكريم، وأنه لا يعوِّض عن القرآن الكريم أي كتاب آخر، ولا أي منهج آخر، فكيف والمناهج السماوية كما ذكرنا كلها مَسَّتهْا أيدي التحريف، اليهودية والنصرانية، وأن حاجة الإنسان للقرآن كحاجة الإنسان الضال في متاهة، وصحراء مهلكة، أو بحور مدلهمة مفرقة وقد انقطع بالتائه كل سبيل للعودة إلىٰ الحياة!

❊ **﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾**:

وحين تكون الدعاوىٰ كثيرة، والأمور مشتبهة، وكلٌّ يدعي أن الهدىٰ هداه، هنا يحتاج الإنسان إلىٰ التفرقة بين المنجيات والمهالك، التي لبست

لباس الهدىٰ، وسيعلم الناس أنه لا مخرج إلا بهذا القرآن... هو الذي يفرق لك بين كل المشتبهات، ويفرزها فرزًا، لهذا ما قال الله سبحانه ﴿هُدًى لِلنَّاسِ﴾ فحسب، وإنما أضاف إضافة جد مهمة وهي قوله سبحانه: ﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾، نعم ربما يكون الشيء هدىٰ بنفسه، لكنه لا يبين هدىٰ، وربما يبين الهدىٰ لكنه لا يفرق بين الهدىٰ والضلال، ولهذا كان كمال الهدىٰ كله، وجماع الهدىٰ كله في القرآن وحده، وذلك يتبين من خلال هذهِ الكلمات المحكمات فقال سبحانه: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾، وإلا لم سماه الله القول الفصل فقال ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلٌ فَصْلٌ ۝١٣ وَمَا هُوَ بِٱلْهَزْلِ﴾ [الطارق: ١٣ ـ ١٤]، ولأنه لا يحوي بيّنةً واحدة بل (بينات)، وليس هو تفريق واحد بين المشتبهات والفتن بل (فرقان)، ولأن حاجة الأجيال لهذهِ البينات وهذا الفرقان لا تتوقف أبدًا، وخصوصًا في عصرنا هذا، لذا كان اجتماع ﴿وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ نعمة لا نظير لها من نعم الله علينا بهذا الكتاب الكريم، وقد قال النبي محمد ﷺ عن أهمية الأخذ بالقرآن في كل وقت وعلىٰ الأخص في أوقات الفتن، فقد ورد: «ذَكَرَ رسولُ اللَّهِ ﷺ يومًا الفتَن وعظَّمَها وشدَّدَها، فقال عليُّ بنُ أبي طالبٍ: يا رسولَ اللَّهِ فما المخرجُ منها قال كتابُ اللَّهِ فيهِ حديثُ ما قبلَكم ونبأُ ما بعدَكم، وفصلُ ما بينَكم، من ترَكَه مِن جبَّارٍ قصمَهُ اللَّهُ، ومن يبتغي الهدىٰ في غيرِهِ أضلَّهُ اللَّهُ، وهوَ حبلُ اللَّهِ المتينُ، والذِّكرُ الحَكيمُ، والصِّراطُ المستقيمُ، هوَ الَّذي لمَّا سمعتهُ الجنُّ قالت إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَىٰ الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا»[1]

(١) رواه الطبراني (١٦٠).

وورد أيضًا: «تركتُ فيكم أمرينِ؛ لن تَضلُّوا ما إن تمسَّكتُم بهما: كتابَ اللَّهِ وسُنَّتي، ولن يتفَرَّقا حتَّىٰ يرِدا عليَّ الحوضَ»[1].

وهنا آية هداية مشاهدة بالأعين إذ يجتمع الخلق والأمر كما قال ﷻ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ حيث يجمع الله إقبال القلوب وإقبال الأبدان في رمضان علىٰ القرآن، فإن الله سبحانه كما كرّم شهر رمضان فجعله شهر القرآن، ونصّ علىٰ هذا في القرآن الكريم، فقد جعل قلوب من خاطبهم أولًا بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾ تقبل إقبالًا منقطع النظير علىٰ القرآن، وهذا أمرٌ مشاهد، يجده كل واحدٍ من أمة القرآن في نفسه ـ في شهر رمضان ـ كما يجده في الآخرين، أَفيكون هذا التناغم بين ما جاء في القرآن عن شهر رمضان وبين إقبال المؤمنين في رمضان، خاصة علىٰ القرآن علامة عادية...؟!

حتىٰ لو قال قائل: إن هذا أمر عادي لأنه من الطبيعي أن يستجيب المسلمون وقد أمرهم الله.

والجواب عن هذا: كيف يكون أمرًا طبيعيًا، فهل أمة القرآن اليوم تطبق القرآن كأمة أم أنها نافرة عن القرآن... حتىٰ تقول إنه أمر طبيعي؟! والجواب: أنها نافرة.

فهل الأمة الإسلامية تعمل بالقرآن أم هاجرة للقرآن؟ والجواب: هاجرة للقرآن اليوم.

فهل إقبال الناس في رمضان علىٰ القرآن، وعلىٰ المساجد، وعلىٰ الصدقة

(١) أخرجه البزار (٨٩٩٣).

علىٰ الفقراء والمحتاجين، وعلىٰ فعل الخيرات، جاء بأمر حاكم، أو باستخدام الشرطة، أو الجيوش، أم أن إقبالهم علىٰ فعل الخيرات جاء بأمر من الله في القرآن الكريم وبأمر رسول الله ﷺ والذي لا ينطق من عند نفسه إنما يأمر بأمر الله تعالى؟ والجواب: قطعًا ليس بأمر حاكم ولا أمر أحد من الناس بل هو إقبال الناس بإرادتهم بل برغبتهم؛ وهنا يأتي السؤال وفيه النتيجة: من الذي جعل كل هؤلاء الناس يقبلون علىٰ القرآن ويقبلون علىٰ طاعة الله، وعلىٰ الصلوات في المساجد حتىٰ أصبح هذا الأمر ظاهرة في زمن قد نفرت الأمة في كل مجالات الحياة عن القرآن؟!

ومن الذي جعل الشباب والشابات الذين فتنوا بالفتن بمختلف أنواعها إذا دخل رمضان تركوا ما اعتادوه من فساد وتابوا وأنابوا إلىٰ ربهم وأقبلوا علىٰ ما يحبه الله ويرضاه من أعمال؟

إنه ليس أمرًا عاديًا، ولا ينبغي أن يفوتكم دراسة هذهِ الظاهرة العظمىٰ وأنتم أهل البحث والتدقيق والتحقيق.

أعطونا جوابًا محددًا واضحًا، لا جواب إلا أن الله حين أنزل هذا القرآن العظيم علىٰ محمد ﷺ بدأ إنزاله في شهر رمضان، وأن الله سبحانه قد جعل القرآن العظيم ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ فكان إنزال هذا القرآن في شهر رمضان الكريم سببًا في أن يصبح شهر رمضان موطنًا فعليًا لهداية الضالين من المؤمنين، وعودة العصاة من المؤمنين في رمضان، وإقبال المقصرين علىٰ الله تبارك وتعالىٰ وطاعته، فأصبح شهر رمضان في عالم الناس، وعالم الزمان، منارة هداية للناس، وشاهد عملي علىٰ أن هذا القرآن هدىٰ

للناس ، وانظروا إلىٰ الناس كيف يهتدون ، كيف يتوبون ، أولا يكفيكم هذا المشهد الكبير للهداية في هذهِ الأرض ؟ في هذا الشهر ؟ وعَوْدة هذهِ الأمة النافرة فجأة إذا ما دخل رمضان ؟ وعلىٰ ضد التيار الجارف ، فهل من إله غير الله تبارك وتعالىٰ ؟

فهذهِ المنارات الهادية وسط هذا الزمان المظلم ، البعيد في ظلماته ، وظُلْمهِ وفِتَنِهِ ، واتباع أهل الزمان لشياطين الإنس والجن ، كافية أن تعيد الناس أمة واحدة ، لو أنهم أنصفوا .

ولا تحسبن أن عودة الناس وهدايتهم في رمضان هي العلامة الوحيدة في هذا الزمان لهداية الخلق بالقرآن ، بل ثمة علامات كثيرة لا يملك أحد إطفاء نورها أبدًا ، ويبقىٰ فيها اجتماع أمر الله في كتابه ، وأمر الله في خلقه ، في مظهر شاهدٍ علىٰ وحدانية الله ، وأن الهدىٰ هدىٰ الله ، وعلىٰ أن هذا ﴿ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ ، وليس أعلىٰ وأجلىٰ من أن هذا القرآن فرقان من أن تشاهد منارات الهداية عالية ناصعة وشموسًا ساطعة وسط ظلمات الأمة في ظلمات العصر الحالكة في مجالات عديدة في حياة هذهِ الأمة العظيمة .

تأمل اجتماع أمر الله في كتابه ، وأمر الله في خلقه ، في كيفية مسير الحجاج في أشهر الحج وأيام الحج وهم ملايين ، ابتداءً من إحرامهم إلىٰ أن يَصِلُوا إلىٰ البيت العتيق ، إلىٰ أن يذهبوا إلىٰ منىٰ في يوم التروية ، ومنه ينطلقون إلىٰ عرفة ، (والحج عرفة) كما يقول النبي ﷺ ، ومن عرفة تفيض الملايين مرة واحدة في لحظة واحدة هي لحظة غروب الشمس إلىٰ مزدلفة ، لتبيت الملايين هناك ، في منطقة مزدلفة ، وتنطلق بعد صلاة الفجر وقبيل طلوع الفجر مرة واحدة ، إلىٰ

منطقة منىٰ، لتؤدي كلها مرة واحدة هو اليوم الأول من أيام منىٰ الثلاث مناسك رمي الجمرات وصلاة العيد، وحلق شعر الرأس أو بعضه، وذبح الهدي، والطواف بالبيت العتيق، حتىٰ تنتهي المناسك في يومين، أو ثلاث، حسب اختيار كل حاج، كما قال الله سبحانه: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ٢٠٣].

إنه مشهد يأخذ بِلُبِّكَ، وخصوصًا إن كنت في وسطهم، حين يفيض الحجاج من منسك إلىٰ منسك، بهذا النظام العجيب، وهذا الالتزام الدقيق، عند كل هذهِ الجموع، التي لا نظير لها علىٰ الأرض، ولا ترىٰ بعينك من يوجهها، ولا يقدر أحد علىٰ ذلك، بل لن تسْمع وسط بحور البشر المنحدرة هذهِ إلىٰ أي مُوَجِّهٍ، أو آمر أو ناه، وهي في هدير كهدير المحيط الفائض، هكذا هو حكم الله، ويدفعها من موقفٍ إلىٰ موقف، ولكنها تسير وفق هذا المنهج وهذا النظام في كل عام، وفي كل موقف، دون أن تحرفه أو تغيره، لأن المصدر وهو كلام الله لا ولن يتغير منه حرف واحد، ولأن الرسول ﷺ قال في حجة الوداع، في كل موقفٍ من المواقف وهو شاخص علىٰ ناقته: «يا أَيُّها الناسُ خُذُوا مناسككم، فإني لا أَدْرِي لَعَلِّي لا أَحُجُّ بعد عامي هذا»[1]، وفعلًا مات النبي ﷺ ولم يلقهم في الحج الذي بعده.

فكيف إذا علمت أن حج الناس اليوم هو هو حج النبي ﷺ، لم يتغير منه شيء ولم ينقص منه قيد شعرة... فمن الذي ضبط إيقاع الجموع، وهي ملايين

(١) رواه النسائي (٣٠٦٢) وصححه الألباني.

مُمَلْيَنة ، في هذا الزمان وما قبْلهِ ، وعلىٰ مدىٰ أكثر من ألفٍ وأربعمائة عام ، تحج البيت العتيق ، وتؤدي مناسك الحج ، منسكًا منسكًا ، دون اختلال ؟!

والجواب: إنه الله ، وإلا فرسول الله ﷺ قد مات ، كما مات جميع الأنبياء من قبله عليهم السلام . . إنه كلام الله الذي هو منار الهدىٰ الأعظم ، الذي قال الله فيه: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ ، والقرآن هو الهدىٰ الذي يتبعه رسول الله ﷺ ، مع ما يوحيه الله إليه من بيان للقرآن ؛ عملي أو قولي أو سكوتي . . . ويكفينا لكي نرىٰ الهدىٰ متجليًا للناس كافة في الحج العملي ، أن نقرأ كلام الله تعالىٰ في سورة البقرة كذلك ، لنرىٰ جميعًا شاهدًا يقول: يستحيل أن يكون هذا القرآن من عند غير الله تبارك وتعالىٰ . . **فانظر ماذا قال الله سبحانه للناس في الحج . . . وذلك لتعرف الشفرة التي تتحكم بالملايين السائرة** ، من غير قائد يقودها في الحج ، وهي تسير بكل دقة وسلاسة وأمنٍ وأمانٍ . . . فانظروا إلىٰ بعض ما قال الله في الحج في سورة البقرة:

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ۗ فَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ

خَلَٰقٍ ﴿٢٠٠﴾ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾ ۞ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْدُودَٰتٍ ۚ فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [البقرة: ١٩٧ ـ ٢٠٣].

لقد عدّدت الأوامر الصريحة في هذه الآية الكريمة فوجدتها اثنىٰ عشرًا أمرًا... وكل أمرٍ موجَّهٌ إلىٰ هؤلاء الحجاج... فمن يضمن تطبيق تلك الأوامر علىٰ كل الناس، ولسوف يختلف الناس بعد نزول القرآن، وسوف يكثرون، وسوف تتغير الثقافات، وما إلىٰ ذلك، وسوف يضعف الإسلام ويزول حُكْمه، فلا حاكم يطالبهم، ولا يلزمهم بحكمه وهذا هو الواقع المشاهد... فمن يضمن تطبيق أوامره وحفظها والأعداد أصبحت مهولة؟! والجواب هو أن من حفظ الأوامر في القرآن هو الذي حفظ القرآن، فهو الذي حفظ الأوامر في قلوب الناس، وإقبالهم عليها، وحرصهم عليها، وهذا أمر ظاهر متواتر، فيا حسرة علىٰ من عاش في هذهِ الدنيا ولم يتذوق الهدىٰ في أيام الحج، ولم يكن له نصيب من ذلك الطعم إلا أن يقرأه كما يقرأ أي شيء آخر، دون أن يلامس الهدىٰ قلبه، ودون أن يشرق النور في صدره، حين يعيش واحدًا من تلك الجموع الهائلة، التي لا نظير لها علىٰ الأرض كثرة ونظامًا، وتعبدًا وإيمانًا، وانقيادًا من غير قائد ظاهر... وهو هناك يرقب بعينيه، ويصغي بأذنيه، ويتنقل ببدنه وقدميه، والذهول يملأ عقله، والهدىٰ ينساب في صدره، انشراحًا ويقينًا، فيتذوق للسعادة طعمًا، يجعله يندم علىٰ كل لحظة مرت في حياته قبل لحظة الهداية هذهِ.

بل الله سبحانه جعل في تلك الأماكن المقدسة خاصة هدىٰ لا يوجد في أي بقعة في الأرض، ألم يقل الله سبحانه: ﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ مَّقَامُ إِبۡرَٰهِيمَۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنٗاۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلۡبَيۡتِ مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧]، فكيف ذلك؟ هذا حديث آخر ليس هذا موطنه، وقد بينت بعضه في كتابي «الوفادة على الله كأنه ترى الله سبحانه وتعالى» والحمد لله رب العالمين.

وأعود مرة أخرىٰ لأقول إن علامات الهدىٰ لا تقتصر علىٰ التناغم بين ما قال الله من الهدىٰ في آياته وبين ما يهدي له الناس كما قاله الله سبحانه في ميدان محصور، فالله أرحم بعباده من أن يضيق عليهم بِمَثَلٍ واحدٍ أو مثلين... تأمل إلىٰ الناس في المساجد المزدحمة، بل تأملها وهم جلوس في الحرم مبثوثين هنا وهناك، بل تأملهم وقد نصبوا موائد الطعام في رمضان للإفطار، وقد جلسوا متحلقين علىٰ الموائد، لا يعدُّون ولا يحصَوَن من الخلق... فإذا ما أقيمت الصلاة وفي وقت ربما لم يتجاوز دقيقة أو دقيقتين فقط وإذا بتلك الجموع كلها صفوف متراصة؛ القدم بالقدم والكتف بالكتف كأنهم بنيان مرصوص أو كأسنان المشط... فمن علَّمها هذا، بل من قَذَف في قلوبها هذا الأدب وهذا الهدىٰ والنور... أليس هذا هو التطابق ما بين حكم الله في كتابه وحكم الله في خلق الله؟

هكذا هذهِ الأمة والدنيا من ورائها تؤزها أزًا غير قادرة علىٰ إطفاء منارات الهدىٰ الفعلية العالية في حياة الأمة، ومنها إقبال الناس علىٰ القرآن وعلىٰ عمل الخيرات في شهر رمضان، إقبالًا لا نظير له، وأداء الأمة مناسك الحج دون قائد حي، في كل عام، بكل نظام ودقة وجمال وجلال، وصفوف الصلاة، التي بقيت آية علىٰ هداية الله هذهِ الأمة، ونحو ذلك من منارات.. نعم إنهم جميعًا

غير قادرين علىٰ إطفاء منارات الهدىٰ العام تلك ، لأنهم في الأساس غير قادرين علىٰ تغيير مصدر الهدىٰ ، وهو القرآن الكريم ، وكل منارات الهدىٰ هذهِ وغيرها ، إنما هي رحمة بالناس كلهم . . . لينظروا في هذهِ المنارات الحقيقية الشامخة ، في زمان الظلمات المدلهمة ، فيبحثوا عن مصدرها ، فيستدلوا بها علىٰ القرآن . . ثم يأخذوا هذهِ الشفرة ويفكُّوا بها حصون الضلال وطبقات الظلمات .

والآن ارجِعْ وانظر ثانية وعاشرة وأضعافًا مضاعفة لقوله تبارك وتعالىٰ ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ ، ولا أقول : فهل استبان لك المعنىٰ ولكن هل استبان لك الهدىٰ ؟

❊ هذا الشهر مضمار الهدى:

قال سبحانه : ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ :

﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ : هكذا أصبح صيام شهر رمضان أعظم مكافآت المؤمن ؛ إنه ليس تكليفًا بوجوب صيام شهر رمضان فحسب ، لكنه حُبُّ الله لعباده ، الذي يربيهم ليتقبلوا ويُقبلوا مشتاقين لشهر الصيام ، وينقلبوا مشتاقين للقاء رب العالمين ، لأنه أصبح ميدانًا لنزول كلام الله ، وأصبح شهرًا لا توصف بركاته ورحماته ، والخير الذي فيه ، كما قال النبي ﷺ : «إذا كان رمضانُ فُتِحَتْ أبوابُ الرَّحمةِ ، وغُلِّقتْ ، أبوابُ جهنَّمَ ، وسُلْسِلَتْ الشياطينُ»[1] ، بل أصبح هذا الشهر مضمارًا للهدىٰ الذي صبغ هذا الشهر لأن القرآن نزل فيه ، أوليس ربنا قد قال عن القرآن ورمضان في موضع واحد : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ .

(١) رواه البخاري (٣٢٧٧) ومسلم (١٠٧٩).

ثم تأمل هذا الترتيب المتناسق المحكم ؛ فإنه إلىٰ قبل هذهِ العبارة الكريمة لم يظهر أن الصيام في شهر رمضان حتم لازم ، حتىٰ جاءت هذهِ العبارة فحسمت الحكم ، فقال سبحانه ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ .

وهكذا يجتمع الترغيب والترهيب ، والتربية والتحفيز ، والتحبيب مع الأمر الحاسم ، لكن الأمر بفرضية صيام شهر رمضان جاءت بعد كل العناصر السابقة ، وكل هذا لم يكن بنزول الآيات مرة واحدة ، أو بنزولها متتابعة متواصلة بالشكل الذي نقرأه الآن ، إنما هي مراحل عاشها الجيل الذي أنزل عليهم القرآن مع رسول الله ﷺ ، مرحلة مرحلة وكل مرحلة تستغرق فترة من الزمان ، حتىٰ تمت فرضية الصيام وتحديده في شهر رمضان ، لهذهِ الأمة خاصة ، وللناس جميعًا في عهد النبي عليه الصلاة والسلام ، ومن بعده إلىٰ يوم القيامة .

وهنا أعود لأسأل ولكل واحدٍ أن يتصور : ماذا يعني الصيام ورمضان في سجل الخلود ، وتغيير النفوس ، وهداية الخلق لو لم يُذْكر في القرآن ؟! إنَّ ذِكْره في القرآن يعني : أن الله تبارك وتعالىٰ قد تحدث فيه ، فغدا هذا هو حديث الله في الصيام ، وعن الصيام ، وعن ما يتعلق بالصيام ، فأصبح الحديث عن الصيام في كلمات الله التامات . . فانبعث الصيام نورًا وهدىً وتربية ورحمة بلا توقف ولا زوال .

❁ هل في هذا تكرار؟!:

قال ربنا سبحانه : ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ .

﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ : ربما قال القائل

هنا: هل هذا تكرار لما مرّ في قوله سبحانه: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾، كان الجواب: لا تكرار في كتاب الله تعالىٰ أبدًا لأجل التكرار وفي كل شيء هدىٰ وهداية، ومثاله هذا الذي أمامنا الآن، فإن الله سبحانه خَيرَّ الناس أولًا بين الصوم وبين الافطار فقال سبحانه: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ فجاءت هذهِ الآية، فنسخت ذلك التخيير إلىٰ الوجوب القطعي، بصيام شهر رمضان تحديدًا، فكانت هذهِ الكلمة الكريمة، لئلا يظن الظان أن العذر الوارد هناك بقوله: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ قد نسخ بما جاء في أول هذهِ الآية، في قوله ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ وأنه لا عذر، ولذا كان هذا إثباتًا للعذر، حتىٰ مع تقرير فرضية شهر الصيام الذي حُدد في أول هذهِ الآية الكريمة.

ثم إن قوله تبارك وتعالىٰ ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فيه التذكير بعظمة مَنْ أَمر سبحانه، وفيه من صراحة الخطاب من الله تبارك وتعالىٰ إلينا ـ نحن الناس ـ ما يفيض علىٰ العباد بالمهابة والتعظيم، والتقديس والتسبيح، إجلالًا لرب العاملين، ورغم أن هذا يذهب شدة التكليف ويلطفه، لكن تبقىٰ عظمة الأمر من عظمه الآمر، وعلوم الأمر من علم الآمر، وحكمة الأمر من حكمة الآمر، وهكذا فإنك تجد أن كلام الله يهديك إلىٰ الله، وإنك كلما تعلمت كلامه وعرفته عرفت الله، لأن كلامه يُعّرِفك من هو الله تبارك وتعالىٰ... ويهديك إليه ﷻ، وبهذا يجد نفسه الناظر في كلام الله... المتدبر له يسوقه الكلام سوقًا إلىٰ صاحبه سبحانه، ويدله عليه لزامًا (ذلكم الله رب العالمين).

❁ هل نفهم لغةَ الحبَّ الحق من الحق سبحانه؟

ثم قال سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾: ومعنىٰ قوله سبحانه: ﴿فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ أي شهد الشهر وهو مقيم غير مسافر، وعاقل غير مجنون، وبالغ غير قاصر، وصحيح غير مريض ولا عاجز عن الصيام، فإنه ليس كل من أدركه شهر رمضان لزمه الصيام.

إن الله ﷻ قادر أن يكلفنا دون أن يبين لنا إرادته ومقصوده، لكنه سبحانه كما يحب عباده ويتحبب لهم وهو الغني عنهم، فإنه يعلمهم أصول التشريع، فتكون قواعد حياتهم التي يسيرون عليها في كل ما يجهلون وكل ما يستجد لهم.

بل جعل سبحانه حول هذا الدين حصنًا حصينًا، يمنع الغلو والرهبانية، والتشديد علىٰ الناس، بل يمنع التشديد علىٰ النفس، والتعسير علىٰ الذات، فضلًا عن التعسير علىٰ الآخرين في الفتوىٰ...

ولسوف أسرد العديد من الأدلة علىٰ التيسير ليتيقن كل أحد أن ليس أرحم بعباد الله من شرع الله، ولا أيسر من دين الله يسر، فالله ﷻ يقول: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾.

ويخاطب الله ﷻ عباده خطابًا صريحًا مبينًا مراده سبحانه فيقول: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ

أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٦ ـ ٢٨].

والله ﷻ يخاطب نبيه ﷺ خطابًا حبيبًا في التيسير له وللمتقين فيقول في سورة مريم ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: ٩٧].

ويقول سبحانه: ﴿وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٨].

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

وقال سبحانه: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ﴿٥﴾ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥ ـ ٦].

وقال سبحانه في الموقف الواجب مع المدين إذا أعسر ولم يستطيع السداد في موعده: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍۚ وَأَن تَصَدَّقُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٨٠ ـ ٢٨١].

ولقد صح في الحديث عن عائشة أم المؤمنين «ما خُيِّرَ رسولُ اللهِ ﷺ بينَ أمرينِ إلا أخذَ أيسرَهما، ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعدَ الناسِ منه، وما انتقمَ رسولُ اللهِ ﷺ لنفسِه، إلا أن تُنتَهكَ حُرْمَةُ اللَّهِ، فَيَنتَقِمَ للهِ بها»(١).

وهو ﷺ القائل لرسوليه إلىٰ اليمن: «بَشِّرا ولا تُنَفِّرا ويَسِّرا ولا تُعَسِّرا»(٢)،

---

(١) رواه البخاري (٣٥٦٠).

(٢) رواه البزار في مسنده (٣١١٩).

ومن المعلوم أن من أصابته جنابة فعليه الاغتسال ولكن المفتين ما يسرّوا الأمر وقد حدثت هذهِ القصة مرة.. فانظر فيها، وماذا قال النبي ﷺ «أنَّ رجلًا أصابَهُ جرحٌ في عَهْدِ رسولِ اللهِ ﷺ، ثمَّ أصابَهُ احتلامٌ، فأُمِرَ بالاغتِسالِ فاغتَسَل فكُزَّ فماتَ، فبلغَ ذلِكَ رسولَ اللهِ ﷺ، فقالَ: قَتلوهُ قتلَهُم اللهُ، ألم يَكُن شِفاءَ العيِّ السُّؤالُ قالَ عطاءٌ: فبلغَنا أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عن ذلِكَ فقالَ: لو غسلَ جسدَهُ وترَكَ رأسَهُ حيثُ أصابَهُ الجرحُ»[1].

ومواقف النبي ﷺ كثيرة في التيسير، بل حياته كلها في هذا، وهو لا يسمح ولا يرضىٰ أبدًا بالرهبانية، أو التعسير علىٰ الناس من أي مقام كان ذاك المتولي، حتىٰ لو كان متوليًا مقام إفتاء، أو إمارة، أو قضاء، أو أي مقام، كيف وهو القائل ﷺ: «اللهم من وليَ من أمرِ أمتي شيئًا فشقَّ عليهم، فاشقق عليهِ، ومن ولي من أمرِ أمتي شيئًا فرفقَ بهم، فارفقْ بهِ»[2].

ولقد استنبط العلماء قواعد عديدة من كلام الله تعالىٰ وحديث رسول الله ﷺ الذي مرَّ معنا في التيسير منها: (إذا ضاق الأمر اتسع)، و(الأصل في الأشياء الإباحة)، و(الضرورات تبيح المحظورات)، و(المشقة تجلب التيسير)، ولقد ألف بعض المختصين رسائل للدراسات العليا وذلك للحصول علىٰ درجة (الدكتوراه) خاصة في قواعد التيسير في الإسلام والتفريع عليها، وتطبيقاتها، **وهنا تتجلىٰ بعض أسرار بقاء هذا الدين وحفظه ومنها التيسير**، فإن المؤسسين للدول والممالك والمستعمرين للدول والممالك، يحيطون أنفسهم

(١) رواه أبو داود (٣٣٦) وقال الألباني: حسن دون قوله إنما كان يكفيه، ومسند الإمام أحمد، رقم (٥/٢٢).

(٢) رواه مسلم (١٨٢٨).

ونظام ممالكهم بحزمة هائلة من الحَزْم والعقوبات، حماية لأنفسهم، ولقوانينهم وتشريعاتهم وأسرهم من بعدهم، وحماية لممالكهم من التحلل والضعف، وللوقوف في وجه الصعاب، ومع هذا فأنت تشاهد كيف تذوب تلك الدول وأنظمتها ويأكلها أبناؤها أنفسهم، بينما أنت تري كيف هي الحرب علىٰ الإسلام من خارجه من كل قوىٰ العالم وأول وأشد تلك الحروب هي تشويهه أولًا، ثم القمع، وتجفيف منابعه المالية... وتدمير بلدانه تدميرًا منظمًا، وإطفاء نور العلم كلما انبثقت، وكل ذلك الهجوم الوحشي يأتينا تحت أسماء حسنة وحقائق وحشية، وتجنيد أهله لذبح أهله من داخله... ومع هذا فما أن تأتي للمسلمين نافذة صغيره من حرية، حتي يعودوا إلىٰ دينهم سراعًا زرافات ووحدنا.

هذا المبدأ الذي قرره الله تبارك وتعالىٰ هو سر من أعظم أسرار استمساك الناس بالإسلام وإقبال الناس عليه حتي في زمان غربته، وقهر عدوه له، فالله حفظ دينه في قلوب الخلق قناعة بعمق، ومحبة بفداء، فهي أمة تحب ربها تبارك وتعالىٰ، وربها يحبها سبحانه، والله ييسر لهم ولا يعسر عليهم، والله يغفر لهم إذا استغفروه، أيًا كان ذنبهم إلا أن يكون حقًا من حقوق الناس فيجب عليهم رده للناس، بل الله تبارك وتعالىٰ يشكر لهم سعيهم الطيب فيقول: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]، وحين أقول (الأمة) فلا أقصد الأمة العربية بل أقصد المسلمين من أي عرق أو بلد.

ومزية أخرىٰ من هذا التيسير، وهي أن التيسير من الله تبارك وتعالىٰ يريك أنه سبحانه لا ييسر لك في مقابلٍ يأخذه منك، بل ييسر لك لأجلك أنت، ييسر



لك ليسعدك ، ييسر لك لتقدم لنفسك أكثر ، وتعطي مجتمعك والناس كافة أكثر وأكثر... ونحن إذا أردنا أن نقرب هذا الأمر لم نجد له تقريبًا إلا عطاء الأم لولدها الرضيع... لكن هل يبلغ حنان الأم برضيعها حنان الله بعبادهِ ﷻ ؟ فانظر وتأمل في هذهِ القصة التي حدثت والنبي ﷺ وأصحابه ينظرون: (قدم علىٰ رسولِ اللهِ ﷺ بسَبيٍ فإذا امرأةٌ من السَّبيِ ، تبتغي ، إذا وجدتْ صبيًّا في السَّبيِ ، أخذتْه فألصقَته ببطنها وأرضعتْه ، فقال لنا رسولُ اللهِ ﷺ «أَتَرون هذه المرأةَ طارحةً ولدَها في النار ؟» قلنا: لا واللهِ! وهي تقدر علىٰ أن لا تطرحَه فقال رسولُ اللهِ ﷺ «لَلَّهُ أرحمُ بعباده من هذه بولدها») ، ليس مثل هذهِ الصورة صورة في الحب والرحمة علىٰ الإطلاق بين الخلق ؛ فهي أمٌّ ، وحبُّ الأم هو الأشد ، وهي في الأَسْر ، وخوفها علىٰ ولدها أشد ، وهي مرضعة ، وحب المرضعة وحنانها أشد ، وخصوصًا وقد جاء وقت رضاعه ، وهو غائب عن عينها وجنون حبها هنا أشد ، وهو وحيدها كما في بعض الروايات ، وحب الوحيد في قلب أمه أشد.. وكل هذا وغير هذا اجتمع في هذهِ الأم ، وهذهِ صورة نادرة يندر أن توجد أو أن يلاحظها أحد ، ومع هذا تفطن لها رسول الله ﷺ ليقرر الحقيقة العظمىٰ في الحب فيقول: «لَلَّهُ أرحمُ بعباده من هذه بولدها»[1] ، ومن هنا ينبع التيسير ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾.

أفيليق يا عباد الله أن لا نعرف ربنا سبحانه وهو يحبنا الحب المطلق الذي لا حبَّ مثله ، فلا يبلغه حتىٰ حب الأم هذهِ فضلًا عمن دونها ، لأن الله هو من فطر الأم علىٰ الحب ، سواءً في ذلك الأمهات من الناس أو من البهائم ، ولولا محبة الأم ما عاش حيوان ولا إنسان ، فحبهم مثلهم حُب مخلوق ، لكن حب الله

(١) رواه البخاري (٣٩٩٩).

يليق بالله وعظمته سبحانه.

فيا لضياع عمر إنسانٍ عرف كل شيء ولم يعرف مُحِبَّه الذي لا مثيل له، ولا مثيل لحبِّه، ويا لشقاوة من يصدُّ عن ربه هذا الصدود، والله سبحانه ما أنزل هذا القرآن إلا لأجلك أنت أيها الإنسان، فحتىٰ هذا الكتاب الكريم لك أيها الإنسان.

ويا لمجازفة إنسان بمشاعره وحبه حين يصرفه في حياته هنا وهناك، وهو يفاجأ بين الفينة والأخرىٰ بضد ما أعطىٰ، بينما لا يلتفت إلىٰ ربه بحبه، وربه هو من خلق الحب وخلق المحبين، وهذا يعرض عن ربه مغرورًا والله علىٰ كل شيء قدير وهو القائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧ فِيٓ أَيِّ صُورَةٖ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦ ـ ٨].



❊ التيسير حتى بمن عَصَوْه:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾:

ولنعد الآن إلىٰ الآية حيث يقول ربنا سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾.

هكذا هو حب الله لعباده؛ إنه الحب الخالص الذي لا تشوبه أية شائبة، واليسر الخالص الذي لا يداخله أي عسر، فالله سبحانه ما ترك للعسر أي احتمال أبدًا، فإنه عبر بأقوىٰ عبارات الإثبات ونفي ضدها بنفس الأسلوب فقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾.

والله سبحانه حين يقول: (يريد ، ولا يريد) فلنعلم أنه سبحانه إذا أراد شيئًا حققه ، أما الإنسان فلربما يريد أمرًا لكنه لا يدركه ولذا يقال: (كم من مريد للخير لم يدركه) ، وربما يريد الإنسان ويجتهد في ذلك ونيته صادقة ولكن لا يحقق ما يريد ، ولذا قال النبي ﷺ: (إنما الأعمال بالنيات) ، قالوا (رُبَّ نية خيرٌ من عمل) ، أما رب العالمين فإنه حين قال ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ فقد حقق اليسر بأعلىٰ درجاته وطهر دينه من التعسير أعظم تطهير ، ولذا فإنك لو دققت في دين الله ، ونظرت في كل ما ظهر لك أن فيه مشقة علىٰ الإنسان فسوف تجد عند التحقيق ضد ما تقول ، ويتبين لك في ذلك آيات الرحمة والتيسير كما لم تحتسب أبدًا ، وأنا والله أراهن علىٰ هذا من غير تردد أبدًا ، ولذا فكل ذلك علامات يستدل بها العباد علىٰ ربهم تبارك وتعالىٰ ، وهذهِ العلامات هي من فضل الله العظيم ، إذ يعيدهم إليه وقد نفروا عنه ، بالعلم والحكمة ، والرحمة والحسنىٰ ، وأحيانًا بالترهيب والتخويف لمن لم يرجعوا بالحسنىٰ ، كما يستخدم الأب المحب أساليب الترغيب والإغراء مع ولده الهارب من البيت لكي يرجع بهدوء ، ولا يجرح مشاعره ، أما إن أعلن تمرده فإنه لا حيلة لإعادته إلا بتخويفه ، لئلا ينزل عليه عدله بين الخلائق ، فاستمع ماذا يقول ربنا سبحانه عن تخويفه: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ [الزمر: ١٦] .

وتأمل هذا الخطاب المباشر من الله سبحانه لعبادهِ ، إنه ليس للمذنبين فحسب وإنما المسرفين علىٰ أنفسهم في الذنوب ، ثم إن الله سبحانه لم يحدد أنواع الذنوب لتشمل كل الذنوب ، ولم يحدد كمية الإسراف لتشمل كل إسراف . . . إنه وعد ومودة مباشرة ، وفيه ما فيه من الخوف السائق لهم باستعجال العودة ، فإن الموت لا يستأذن ولا يعطي مقدمات ، لأنه غيب اختص الله نفسه

سبحانه بعلمه... فاقرأ هذهِ الآيات وقرر ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٩﴾ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾ وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦٢﴾ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الزمر: ٥٣ ـ ٦٦].

وبعد هذا أقول: هل تظنون أننا وفَّينا لرب العالمين علىٰ إعلانه إرادته في قوله المباشر لنا: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، أما أنا فأقول: لا والله، وأترك الباقي لضمائركم العارفة بربها، والتي لا تشك فيه ذرة، وإن كابر البعض وجحد اللسان.



❁ العسر في ترك الصيام:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾:

ليس معنىٰ اليسر هو أن الله يعطيكم ما يوافق أهواءكم، ويشبع شهواتكم، وما إلىٰ ذلك، فهذا هو الهلاك المحض للناس، لأن أهواء الإنسان ـ في العادة ـ لا تكون إلا بالتعدي علىٰ إنسان آخر، أو بالتعدي علىٰ المجتمع، فكم قتلت الناس أهواؤهم، وكم فككت العلاقات الأسرية والاجتماعية الأهواء، وكم أفسدت الأهواء عدل الحكام في رعيتهم وأمانتهم، وكم أضرَّ بالصحة الجشع في الأكل، وأتىٰ بالسمنة والأمراض، وإنه وبالإضافة لكل فوائد الصيام التربوية فإنه قد ألف فيها مجموعة من الأطباء مؤلفات عديدة: ولقد طلبت من أخي البروفيسور الدكتور عبدالله العلي أن يكتب لي في أثر الصيام علىٰ الصحة فقال باختصار شديد: عرفت البشرية من قديم أَن الصوم مفيد للصحة، فتناصح الناس به، ومنها القول المشهور الصحة في أطراف الجوع، وإذا أصابك مرض فانظر ماذا طعمت... الخ.

وبالطبع وضع الأطباء برامج مختلفة للصوم، اجتهدوا فيها لتحقيق النتائج العلاجية المرجوة، ولا تزال هذه البرامج تتغير، إلىٰ يومنا هذا، في مختلف أنحاء العالم، لكننا اليوم بصدد إبراز الصيام المقرر في الشريعة الاسلامية، فرضا وسنة، لأنه وبعد مرور ١٤ قرن علىٰ فرضه، تتكشف فيه اعجازات، لا يمكن معها إلا القول أن هذا البرنامج لا يكون من إنتاج البشر، ولم يكن إلا من الله، العليم بكل شيء، والذي جعل الصوم يقوم بإصلاح الأجسام، وتهذيب النفوس، وتقوية الإرادة، وإطعام الفقير، ليترابط ويتراحم المجتمع.



سأقتصر في كلامي هنا عن بعض الفوائد الصحية للجسم.

الصوم شرعا يبدأ من الفجر إلىٰ الليل، يمتنع فيه عن كل أشكال الطعام والشراب، ثم يفطر ليلا. ومعلوم أن النهار وقت العمل والحركة، وإنتاج واستهلاك الطاقة، حتىٰ يفرغ الجهاز الهضمي من كل الطعام ويبدأ الجسم في إنتاج الطاقة من مخزونه من النشويات والدهون والبروتين، وإذا أردنا بعض التفصيل سنجد ان الجسم يأكل بعض خلاياه الهرمة، والتي أمضت معظم عمرها، لينتج بدلا منها خلايا جديدة، مثلا كريات الدم الحمراء تعيش حوالي مائة وعشرين يوما تقريبا، فنجد ان الجسم يأكل منها التي أمضت مائة يوم أو أكثر، وهكذا باقي خلايا أعضاء الجسم المختلفة، يعني تجديد الجسم بالصوم.

شيء اخر مهم، وهو أكل الجسم للخلايا الضعيفة، مثل الخلايا السرطانية، وهذا من أشكال العلاج بالصوم حتىٰ إذا مضىٰ النهار آن للجسم أن يتقوىٰ من جديد، ليستعد لجولة جديدة في الغد. فصوم النهار ليس كصيام الليل لأن إنزيمات وهرمونات الجسم النهارية مختصة بالحركة والعمل، واستهلاك الطعام، والتخلص من الفضلات، وعمليات الهدم فيها كثيرة، يساعدها في ذلك البيئة الخارجية، من ضوء تتعدد فيه أطوال الموجات، وهواء تتباين فيه نسب الغازات، كارتفاع نسبة الأوزون فجرا.... الخ.

أما الليل فهو لإعادة بناء الجسم، والراحة، واستهلاك منخفض للطاقة، لذلك يغلب الكسل ليلا، عندما ينتج الجسم الميلاتونين في الظلام.

كلما مر الزمن اكتشفنا أسرارا في الصوم، تشير إلىٰ عظمة الخالق الرازق، الذي فرضه بهذه الكيفية.

يمتد الصيام شهرًا كاملا متصلًا ، لا يجوز أخذ إجازة خلاله ، وذلك من أجل اكتمال عمليات التجديد من هدم وبناء وإصلاح. سمعت انتقاداتٍ حول طول فترة الانقطاع عن شرب الماء ، وأنه يضر بالجسم ، خصوصا لأهل المناطق الحارة ، وجوابي كطبيب أقول: ان الطب علم تجريبي ولم يسجل أحد في تاريخ الطب ضررًا من هذا النوع ، أما المرضىٰ ومن شاكلهم من الحوامل والمرضعات ، فلا صوم عليهم حتىٰ يشفوا ، لذلك هم ليسوا محلا لقياس أثر الصيام صحيا.

فهل رأيت كيف تحققت إرادة الله باليسر ، وهل رأيت كيف أن الإعسار في ترك الصيام والإنسان غير معذور؟ لمن وجب عليه؟



❁ ضمائر الجماعة:

﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾ سبحان الله ؛ كيف أن خطاب ربنا سبحانه في الصيام كله جاء علىٰ أننا جماعة ، وكيف أن ضمير الجماعة لم يفارق الخطاب وأفعال الصوم وغاياته أبدًا... لنعلم أن الله سبحانه إنما أراد بالصوم إصلاحًا للناس كافة ، وهداية الناس كافة ، وإبلاغهم في نهاية شهر الصوم غايات هذهِ الفريضة العظيمة ، في الأمة كلها.

أين من يقول إن الصوم عبادة فردية بحتة وقاصرة في أثرها علىٰ الفرد؟!

أيرضىٰ الله ﷻ عمن إذا صام انقطع عن الناس ، وانعزل عنهم ، وساء خلقه الاجتماعي ، وانقبضت نفسه ، وانكفأ علىٰ ذاته ، وترك أمته وهي أحوج ما تكون

إليه..؟! سبحان الله..! هنا تأمل كيف هو خطاب الله تبارك وتعالىٰ للأمة في نهاية شهر الصوم ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

ومن يشاهد المجتمع المسلم يعرف أثر الصوم في المسلم، بل أثر رمضان في المجتمعات وفي الأمة المسلمة حتى وهي في وهدتها اليوم، فهو عند المسلمين شهر تصلح فيه الخصومات، وتوصل فيه الأرحام المقطعة، وهو شهر المساكين بامتياز، وهو شهر الإكرام، وشهر الجَمعة والاجتماع على كل خير، كما أنه شهر تفتت التجمعات الشريرة واندحارها، فهل تذكرون ماذا يقال عند قدوم شهر الصوم «يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصر».

نعم لقد اعتكف النبي ﷺ، واعتكف أصحابه معه، رضي الله عنهم، عشرة أيام في المسجد، وما شُرع الاعتكاف إلا فترة تحتاجها النفس، لتزكيتها، وتطهيرها، وتنقيتها، وتعريفها بربها أكثر وأكثر، فإن معرفة الله تبارك وتعالىٰ مقامات وأي مقامات، وهل البرنامج الأساس للاعتكاف إلا مدارسة القرآن الكريم؟ وهل من إعداد لنفس الداعية إلىٰ الله، وحامل مشعل الهدىٰ والنور أفضل من أن يجتمع فيه الصوم والقرآن؟ ففي الصوم انقطاع عن الأهواء، وانقطاع عن المألوف، فلا طعام ولا شراب ولا جماع فضلًا عن المحرمات من ذلك، وفي القرآن النور المبين ومعرفة رب العالمين، وتطهير النفس من أدرانها، وتزكية النفس وإشراقها، وإعلاؤها وامتلاؤها بحب الله، الذي يفيض منها بحب عظيمٍ لخلق الله، ولهذا كانت نتيجة الاعتكاف في شهر الصيام هو انطلاق الصائم بعد شهر رمضان خيرًا خالصًا، وعطاءً شائعًا، وهداية ونورًا، كما كان أثره علىٰ رسول الله ﷺ نفسه ففي الحديث: «كان رسولُ اللهِ ﷺ أجود الناسِ، وكان أجودَ ما يكونُ

في رمضانَ، حين يلقاه جبريلُ، وكان جبريلُ يلقاه في كلِّ ليلةٍ من رمضانَ، فيدارِسُه القرآنَ، فلَرَسولُ اللهِ ﷺ حين يلقاه جبريلُ أجودُ بالخيرِ من الريحِ المرسلةِ. وروىٰ أبو هريرةَ وفاطمةَ رضي الله عنهما، عن النبيِّ ﷺ: أن جبريلَ كان يُعارِضُه القرآنَ».

وهذا الاعتكاف لا يقطع المعتكف عن خدمة الناس والتفاعل الإيجابي معهم علمًا، وعطاءً، وإنفاقًا، وشفاعة، فلقد صح في الحديث: «ومن مشىٰ معَ أخيهِ في ناحيةِ القَريةِ لتثبُّتِ حاجتِهِ ثبَّتَ اللَّهُ عز وجل قدمَهُ يومَ تزولُ الأقدامُ، ولأن يَمشيَ أحدُكُم معَ أخيهِ في قضاءِ حاجتِهِ أفضلُ من أن يعتَكِفَ في مَسجدي هذا شَهْرينِ ـ وأشارَ بأصبعِهِ ـ ألا أخبرُكُم بشرارِكُم؟ قالوا: بلىٰ يا رسولَ اللَّهِ. قالَ: الَّذي ينزِلُ وحدَهُ ويمنعُ رفدَهُ ويجلِدُ عبدَهُ»[1].

وكيف يمنع الاعتكاف من الناس وخدمتهم والشفاعة لهم وأداء حق إخوتهم وهو إنما شرع لإعداد المجتمع والناس.

❁ التربية الإلهية بالإنجاز:

قال ربنا سبحانه: ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾.

إكمال العدة أمرٌ عظيم في تربية النفس الإنسانية، فإن الإكمال نجاح، والله سبحانهُ يفرِّح الأمة بنجاحها في تحقيق الكمال، ويذيقهم فرحة الإكمال، الذي ما من أحدٍ من الناس الصائمين طوال شهر رمضان، إلا وسيبلغ هذا الكمال

(١) رواه أحمد (٢٧٥٩٨) وقال المحقق: إسناده حسن بشواهده.

الكبير ، فهو في الحقيقة نجاح الأمة كلها ، بإكمال العدة ، والأمة حين تحتفل بالعيد فإنما تحتفل بإكمالها العدة التي جعلها الله لهم .

أليس من الضرورة أن تتذوق الأمة النجاح ولو مرة واحدة في العام خصوصًا في مثل هذهِ العصور العسيرة المريرة ؟ وكم يكون لهذا العلاج الإيجابي الجماعي من أثر عظيم في حياة الأمة رغم كل الاحباطات في حياتها المعاصرة ، فكيف والله سبحانه يهبها الكمال بكل يوم تصومه ؟ وإن فرح النفس كل يوم بإتمام يومها من رمضان لا يشابهه شعور ، وذلك عند فطره إذا غربت شمس كل يوم من أيام رمضان ، ولهذا يقول النبي ﷺ «للصائمِ فَرْحتانِ يفرَحْهُما إذا أَفطرَ فَرِحَ بفطره ، وإذا لقي ربَّه فَرِحَ بصومِهِ»[1] ، وكل من جرّب إنجاز عملٍ مهم في حياته ، أو إتمام طلب علم ، أو أتمّ مدارسة كتاب ، أو أتم صناعة منتج ، أو نحو ذلك ، فإنه يفرح به فرحًا كبيرًا ، لا يساويه فرح آخر .

ثم إن هذا الفرح اليومي ليس هو فرح فردي ، بل هو فرح جماعي اجتماعي ؛ فلو رأىٰ الناس كيف تجلس الأسرة المسلمة كاملة ، علىٰ مائدة الإفطار كل يوم ، وهي تنتظر أذان المغرب ، وكيف تجتمع علىٰ مائدة السحور قبل الفجر ، أي آخر الليل ، وكيف يجتمع الكثير من الناس في المساجد ، والخيام الرمضانية ، بشكل جماعي كثيف منقطع النظر ، وكيف تتواصل الأرحام وتتزاور ، وخاصة في ليالي هذا الشهر المبارك ، وهذا الجو هو جو السعادة الحقيقية التي تعيشها أمة القرآن كل ليلة . . في كل مجتمع ، وكل أسرة ، وهذا الاجتماع قد حض عليه النبي ﷺ ، فلم يشجع علىٰ الإفطار المنفرد المنعزل ،

(١) أخرجه البخاري (١٩٠٤) ، ومسلم (١١٥١) .

بل شجع على الاجتماع على الإفطار فقال ﷺ: «مَن فطَّرَ صائمًا كان مغفرةً لذُنوبِه وعتْقَ رَقَبَتِه مِن النَّارِ، وكان له مِثْلُ أجْرِه مِن غيرِ أنْ ينقُصَ مِن أجْرِه شَيءٌ. قالوا: يا رسولَ اللهِ، ليس كلُّنا يجِدُ ما يُفَطِّرُ به الصَّائمَ؟ فقال رسولُ اللهِ ﷺ: يُعْطِي اللهُ هذا الثَّوابَ مَن فطَّرَ صائمًا على مَذْقَةِ لبنٍ، أو تمْرٍ، أو شَربةِ ماءٍ، ومَن أشبَعَ صائمًا سقاهُ اللهُ مِن حَوْضي شربةً لا يظمَأُ حتَّى يدخُلَ الجنَّةَ».

والله ﷻ يهنئ الصائمين على إتمام كل يوم كما يهنئهم جميعًا على إتمام صيام الشهر كلِّه، ويُشرِّع لهم عيدًا خاصًا اسمه (عيد الفطر)، ويأتي هذا العيد في اليوم الأول من شهر شوال، وهو اليوم الملاصق لليوم الأخير من شهر رمضان المبارك، وشعار هذا اليوم هو التكبير أي قول: (الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله والله أكبر، الله أكبر ولله الحمد)، ولهذا قال الله سبحانه بعد إكمال العدة ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ﴾ قال: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾، **فالعلاج ليس في الصيام وحده، بل العلاج في الإفطار كذلك**، فهو علاج السلبية القلقة بالفرح، وعلاج النواقص بالإنجاز، وعلاج الفشل بالنجاح، وعلاج الهموم القاتلة للأمة بالفرحة الجماعية الكبرى، وهي واجبة.

وهذا كثير في القرآن العزيز، كما قال سبحانه للمسلمين لما هزم المسلمون في معركة (أحد)، فأنزل الله عليهم آيات عظيمة، وعجيبة، وكثيرة، ومنها قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩ ـ ١٤٠].

وقال سبحانه عن جزع بني إسرائيل لما رأوا فرعون وجنده ورائهم والبحر

أمامهم. ﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴾.

❁ تكبير الأمة على الهداية:

قال سبحانه: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾.

هنا أمران عظيمان يدلان علىٰ عظمة مَنْ شرعهما، كما يدلان علىٰ عظمة اجتماع الصيام والقرآن ذلك هو التكبير فالتكبير لا يكون إلا لأمر كبير، فكيف والتكبير هنا تكبير الأمة بأكملها وهي خارجة من بيوتها إلىٰ حيث أمرها ربها وإلىٰ بيته سبحانه، وقد جاء التكبير كما قلت: علىٰ هداية الله لها ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾.

فتأملوا وتقدموا بأنفسكم يا من تترقبون هداية الله لكم، بل يا من لم تفكروا بهذا الأمر مرة في حياتكم.

فإن موضع الهداية في الأساس هو القلوب، وهداية القلوب حقيقة لا يملكها إلا الله تبارك وتعالىٰ، فهي أعظم حقيقة علىٰ الإطلاق في حياة الإنسان لكنها كما ذكرتُ حقيقة مخفية، كما قال الله تبارك وتعالىٰ لرسوله محمد ﷺ ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦].

وقال سبحانه لبعض الأعراب حين زعموا أنهم أصبحوا مؤمنين: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن

تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات: ١٤].

ثم يأتي بعد نعمة الهداية الخفية الإعلان عن هذهِ النعمة بأعلىٰ رمز للإعلان، وللاعتزاز، وللانبهار، وهو تكبير الله... إنه تكبيرُ المجتمع كله، وليس تكبير فرد فحسب، إنه اليوم أشبه ما يكون بالإعلان عن ولادة أمةٍ جديدة، بعد ما كادت تموت وشارفت عليه... إنه إعلان هذهِ الأمة أنها الأمة الوحيدة التي هداها الله، بعد ما أدخلها في شهر الصيام، ثم أخرجها منه الآن بالهدىٰ، فهي تكبرِّ الله سبحانه علىٰ الهدىٰ الذي تحقق، ولهذا فهي تعلن الهدىٰ منفردة به بين الأمم جميعًا، وهذا الإعلان هو دعوة للأمم الأخرىٰ أن تلتحق بهداها، فإن سَألتْ الأمم الأخرىٰ عن مفتاح دخول الهدىٰ جاء الجواب في صيغة التكبير وهي كلمة (لا إله إلا الله) فهي كلمة الأنبياء عليهم السلام لجميع أقوامهم، وهي الكلمة التي لا ينبغي أن تختلف عليها جميع الأمم، وعليها إجماع جميع الأنبياء عليهم السلام وأتمهم العقول، ثم هي لابد أن تكمل معتقدًا بشهادة أن محمد رسول الله ضرورة، فإن هذا القرآن إنما نزل علىٰ رسول الله، وإن الشهادة للنبي الخاتم وبأنه رسول الله شهادة لجميع الأنبياء، كما أن الكفر بني واحد كفرٌ بجميع الأنبياء عليهم السلام، بل كفر بالله الذي أرسلهم فإن الصيام هو شرع الله للأنبياء عليهم السلام جميعًا، كما قال سبحانه في آية تشريع الصيام الأولى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾.

إن هذا الإعلان بعد انتهاء شهر الصيام يقول للناس عن أمة محمد ﷺ: إننا أمة خالدة أبد الآبدين في هذهِ الدنيا، حتىٰ وإن كنا في فترة من فترات الزمان

ـ كما نحن الآن ـ في ذيل قافلة الأمم.. لتركنا القرآن وتركنا اتباع رسول الله ﷺ ولضعف ترابطنا وضعف شخصيتنا، وضعف قوتنا، وغلبة الأمم علينا، وانعدام قائد واحد لنا... مع كل هذا وغير هذا، فها نحن نصدح بصوت واحد بأقوىٰ عبارات القوة والعلو والرفعة والوحدة والانضباط قائلين: (الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله، الله أكبر، الله أكبر ولله الحمد).

❊ شعار الإيمان الجامع:

قال سبحانه: ﴿وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾:

فإن سئلت هنا: فأين هداكم وكيف هداكم؟ جاء الجواب: هادياً إلىٰ الله من خلال شهادة هذهِ الآيات الكريمة التي تشهد بأنه لا يقول هذا الكلام إلا الله رب العالمين.. فقد قال الله سبحانه: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾، فإن الهداية كانت بهذا القرآن الذي أنزله الله في رمضان، فاجتمع في الشهر الكريم هذا نزول مصدر الهداية، وموطن نزول الهداية... فكيف لا تهتدون يا من شهدتم هذا الشهر كله، وأكملتم العدة لذا حُقَّ لكم أن تُكَبِّروا الله علىٰ ما هداكم، وحري بكل الأمم أن تردد معكم التكبير إذ بلغتها موجاته الصوتية، ليتواصل تكبير الله إلىٰ منتهىٰ ملكوت الله.

أرأيت أيها القارئ المكرم: كيف ذكّر الله بالنعمة الكبرىٰ لهذا الشهر وهي نعمة الهداية فقال سبحانه: ﴿وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ﴾ فعاد آخر

الآيات علىٰ أولها أحسن عودة، وأحكم الموضوع أبلغ إحكام، واجتمعت لكم الثمرة والشجرة معًا، فمن يستطيع التكبير منكم فليصدح علىٰ هداية الله لكم، ولتكبروا أنتم يا غير المسلمين طلبًا لهداية الله.

ومع كل هذا فإنك لا تلاحظ أبداً في هذا الشعار أي اختصاص للعرب أو للأفراد أو لأي أمة من الأمم.. وإنك لا تلاحظ هذا الشعار لأنه لا يوجد في الإسلام مطلقًا، ولو وجد لقضي عليه النبي ﷺ، كما فعل حينما ثار خلاف بين مجموعتي أصحابه وقال: «دعوها فإنها منتنة»، كما صح في الحديث: (مرَّ شَاسُ بنُ قيسٍ وكانَ شيخًا قد عسَاَ في الجاهليةِ، عظيمَ الكفرِ، شديدَ الطعنِ علَىٰ المُسلِمينَ، شديدَ الحسدِ لهم، علَىٰ نَفَرٍ من أصحابِ رسولِ الله ﷺ من الأوسِ والخزرجِ في مجلسٍ قد جمَعَهُمْ يتَحدَّثُونَ فيه، فغَاظَهُ ما رأىٰ من أُلْفَتِهم وجماعتِهم وصلاحِ ذاتِ بينِهم علىٰ الإسلامِ، بعد الذي كان بينَهم من العداوةِ في الجاهليةِ، فقال قد اجتَمَعَ ملأُ بنِي قِيلَةَ بهذِه البلادِ واللهِ ما لنا معهُم إذا اجتمع ملَؤُهم بها من قرارٍ فأَمَرَ فتىٰ شابًّا معه من يهودٍ فقال اعمَدْ إليهم، فاجلِسْ معَهم، ثمَّ ذكرهم يومَ بُعاثٍ، وما كان قَبْلَه، وأنشدهم بعض ما كانوا يتقَاوَلُونَ فيه، من الأشعارِ، وكانَ يومَ بعاثٍ يومًا اقتَتَلَتْ فيه الأوسُ والخزرجُ، وكان الظَفَرُ فيه للأوْسِ علىٰ الخزرَجِ، ففَعَلَ فتَكَلَّمَ القومُ عند ذلك، وتنازَعُوا، وتفَاخَرُوا، حتَّىٰ تَواثَبَ رجلانِ من الحَيَّيْنِ علىٰ الركبِ، أوسُ بنُ قَيْظِيٍّ أحدُ بنِي حارِثَةَ مِنَ الأوسِ، وجُبَارُ بنُ صخرٍ أحدُ بنِي سلمةَ من الخزرجِ، فتَقَاوَلا ثم قالَ أحدُهُمَا لصاحبِهِ إنْ شِئْتُمْ واللهِ رددنَاهَا الآنَ جَذْعَةً، وغَضِبَ الفَرِيقَانِ جميعًا، وقالُوا قد فعلْنَا؛ السلاحَ السلاحَ موعِدُكُم الظاهرةَ، والظاهرةُ الحَرَّةُ، فخرجوا إليها

وانضمَّتْ الأوسُ بعضُها إلىٰ بعضٍ، والخزرجُ بعضُها إلىٰ بعضٍ، علىٰ دَعْوَاهُم التي كانوا عليها في الجاهليةِ، فبلغ ذلك رسولَ الله ﷺ، فخرجَ إليهِم فيمَنْ معه من المُهاجِرينَ من أصحابِهِ، حتَّىٰ جاءَهم فقالَ: يا معشرَ المُسلِمينَ اللهَ اللهَ، أبدعوىٰ الجاهليةِ وأنا بينَ أظهُرِكُم، بعدَ إذْ هدَاكُم اللهُ إلىٰ الإسلامِ، وأكرمَكُمْ بِهِ، وقطَعَ بِهِ عنكُم أمرَ الجاهليةِ، واستنقذَكُم به من الكفرِ وألَّفَ به بينَكم، ترجِعونَ إلىٰ ما كنتم عليه كفارًا، فعرَفَ القومُ أنها نَزَغةٌ من الشيطانِ، وكيدٌ من عدوِّهِم لهم، فألْقَوُا السلاحَ مِن أيديهِم، وبَكَوْا وعانَقَ الرجالُ بعضُهم بعضًا، ثم انصرَفُوا معَ رسولِ الله ﷺ سامِعِينَ مطيعينَ، قد أطْفَأَ اللهُ عنهم كيدَ عدوِّ اللهِ شاسٍ، وأنزلَ اللهُ في شأنِ شاسِ بنِ قيسٍ وما صَنَعَ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٨ ـ ٩٩]، وأنزَلَ فِي أوسِ بنِ قَيظِيٍّ وجُبارِ بنِ صخرٍ، ومَن كانَ معهمَا من قومِهِمَا، الذين صنَعُوا ما صنعوا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تُطِيعُوا۟ فَرِيقًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟

﴿وَٱخۡتَلَفُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

والموطن الذي يذكر الله فيه الأمة بالمدح ليس المقصود لنسبتها إلىٰ قوم وقومية، أو بلدٍ أو لسان، إنما للإيمان، والإيمان يجمع كل المخلصين كما يجمع الأنبياء عليهم السلام، ومن آمن بهم ولم يرتد عن دينهم، ومن هذا قول الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥١ - ٥٢]، ولهذا حين خاطب الله هذهِ الأمة المؤمنة ومدحها إنما مدحها بإيمانها وأعمالها وأمْرها بالمعروف ونهيها عن المنكر وما إلىٰ ذلك فقال سبحانه: ﴿كُنتُمۡ خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ تَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَتَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِۗ وَلَوۡ ءَامَنَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۚ مِّنۡهُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

❊ شكر نعمة الهداية كيف يكون؟

قال سبحانه ﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾: سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده، إنك لا تملك وأنت تمرَّ بكلام الله تعالىٰ، وترىٰ إحكام هذا الكلام، وترىٰ تفصيله، إلا أن تُسَبِّح الله دائمًا وأبدًا، فهناك قد قال الله سبحانه ﴿وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ﴾ فماذا بعد إكمال العدة من أعمال، قال الله سبحانه: ﴿وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ﴾ هذا هو العمل الأول، وهو أول أعمال يوم العيد، وذكرنا أن هذا هو المناسب ليوم العيد، حيث يعلن الصائمون أنهم بلغوا الغاية من نزول

القرآن ، ومن شهر الصيام ، وهو شهر الهداية ، تلك الغاية هي الهدىٰ ، فكان في هذا الإعلان دعوة ضمنية للهدىٰ ، لكل من لم يهتدي من الأمم الأخرىٰ ، لكن قوله سبحانه الآتي أوضح ذلك المقصود وحدده وأجلاه ، في قوله تبارك وتعالىٰ : ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ وشكر كل نعمة بما يناسبها ، وشكر نعمة الهداية بإبلاغ الهداية للناس الذين لم يهتدوا بعد ، فالله لا يعطي الهدىٰ لإنسان ليكتمه في نفسه ويحوطه من كل جهاته لشخصه ، لأن الهدىٰ والنور شيئًا واحدًا ، ولذا فإن من آتاه الله النور عليه أن ينير الدرب للآخرين ، قال ﷻ : ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٢] .

وقد ضرب الله المثل لنوره في قلب المؤمن في آية عظيمة ـ وكل آيات الله عظيمة ـ ولم يكتف سبحانه بذلك ، بل بيَّن انبعاث نوره لكل الآفاق فقال سبحانه ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥] أي في قلب عبده المؤمن المهتدي ﴿كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ .

فما دام الشكر كذلك ، فهي دعوة تشريف مفتوحة لكل أحدٍ ، من رب العالمين تبارك وتعالىٰ ، أن يحملوا ما عرفوا من هدىٰ ونور ، ويبلغوه للعالم كله ، بل هي دعوة لكل الأمة المهتدية ، أن لا تبخل علىٰ الأمم الأخرىٰ بدعوتها بالحكمة والموعظة الحسنة ، فهذا واجب عليها ، وليس فضلًا تمنُّ به علىٰ

الأمم، ولا خلاص من هذا الواجب إلا بأدائه، والدليل على هذا من هذهِ الآية نفسها، وذلك في قوله ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ فإذا لم تؤدوا دوركم في دعوة الأمم إلى هدى الله فلستم بشاكرين، حتى لو صمتم شهر رمضان وصليتم وقرأتم القرآن كله، ولهذا ختم الله الآية بقوله ﴿وَلَعَلَّكُمْ﴾ وهذهِ في الشكر خاصة، بينما لم يقل سبحانه (وَلَعَلَّكُمْ) في العبارتين اللتين سبقتها بل جزم فيها فقال: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ﴾، وأضاف في الختام ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، فالشكر لا ينتهي بانتهاء الشهر الكريم، ولا يتوقف عند تحقق الهداية الشخصية، فهذا مناقض لمعنى الشكر ومقتضاه، إذًا فإن الله قد ختم هذهِ العبارات الثلاث والتي تحمل الغايات الثلاث بالشكر، لأن إكمال العدة ينتهي بانتهاء رمضان، والتكبير على الهدى إنما يكون في اليوم الأول بعد رمضان وينتهي، وأما الشكر على نعمة الهداية وهو الدعوة إلى الهدى فهذهِ تمتد أبد الآبدين، ولا تنتهي بنهاية إكمال العدة ولا بانقضاء وقت التكبير ولهذا كانت هي الأخيرة التي لم تعقبها عبارة أخرى أبدًا فينطلق الشاكر عاملاً عملاً صالحاً مستمرًا متعدياً نفعه للآخرين، وهذا طبع الشكر كما قال سبحانه: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ۖ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ ۚ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٢، ١٣].

❁ خسارة الشيطان نعوذ بالله منه:

قال سبحانه: ﴿وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

فإنه في هذهِ العبارة نقض لتعهد الشيطان الأول، حين طلب من الله سبحانه أن يجعله من المنظرين ليصرف الناس عن شكر الله سبحانه فقال سبحانه: ﴿قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٦ ـ ١٧]، وهذا النوع من الشكر ـ وهو نشر الهدىٰ والذي ختمت به أفعال الصيام ـ هو أشد ما يكون علىٰ إبليس لعنه الله، لأن الشاكر هنا إنما هو سالك طريق الأنبياء عليهم السلام، وهو أحسن وأكرم طريق فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

وقال الله عن نبيه محمد ﷺ ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

ثم إن الصيام خسارة للشيطان نفسه، لأن فيه خسارة لأكبر وأشر جند الشيطان نعوذ بالله منهم وهم اليهود، فإن وسيلة اليهود التي يصلون بها إلىٰ مآربهم، إلىٰ أن يسيطروا بها علىٰ الناس، هما أمران: النساء والمال، وبهذا يسيطرون علىٰ العالم اليوم، ولذا قال النبي ﷺ: «إِنَّ الدُّنْيَا حُلْوَةٌ خَضِرَةٌ، وَإِنَّ اللهَ مُسْتَخْلِفُكُمْ فِيهَا، فَيَنْظُرُ كَيْفَ تَعْمَلُونَ، فَاتَّقُوا الدُّنْيَا وَاتَّقُوا النِّسَاءَ، فَإِنَّ أَوَّلَ فِتْنَةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَانَتْ فِي النِّسَاءِ»[١].

---

(١) رواه مسلم (٢٧٤٢).

وأما المال فهو معروف، ومعروف كيف يغري اليهود الناس بالمال إلىٰ أن يوقعوهم في الربا، ثم يخنقوهم ويستعبدوهم ويسخروهم، وهكذا، فإن أَبوا الخنوع لهم، حاصروهم، وجوعوهم، حتىٰ يخضعوهم، فيسيرون في ركابهم.

وفي الصيام جاءت صناعة نفسية الفرد العزيز، والأسرة المتماسكة، والأمة الرحيمة القوية، التي لا يمكن ابتزازها من فروجها ولا من بطونها، وهل الصيام إلا ترك الشهوة والطعام والشراب الحلال، فضلاً عن الحرام.

ولخطورة موضوع المال علىٰ الأمة، فإن الله تبارك وتعالىٰ خاطب الأمة كلها بما يخص هذا الموضوع في أول آية بعد الانتهاء من آيات الصيام وشهر رمضان، فقال سبحانه: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨] وفي هذا تثبيت للمنهج الذي تربىٰ عليه المسلمون في رمضان، من تقوىٰ الله في كل شيء، وتقوىٰ الله في المال بشكل مخصوص، **وفيه إشارة إلىٰ سلوك ذميم عند اليهود وهو تحريم أكل أموال بعضهم البعض**، وتشجيعهم أكل أموال الآخرين، ولهذا فبعد ما خاطب الله الأمة المؤمنة بالتحريم فقال ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ﴾ أكد أن النهي عام في أموال الناس كافة لذا قال في نفس الآية ﴿لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ فعمَّم حرمة أكل أموال الناس كافة، ولهذا فإن اليهود يعلمون علماً قاطعاً بأن الله شرّف أمة محمد ﷺ، إذ جعل نهاية اليهود القادمة القريبة علىٰ أيديهم كما قال النبي ﷺ: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، فَيَقْتُلُهُمُ الْمُسْلِمُونَ حَتَّىٰ يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ، فَيَقُولُ الْحَجَرُ أَوِ الشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ يَا عَبْدَ اللهِ

هَذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي ، فَتَعَالَ فَاقْتُلْهُ ، إِلَّا الْغَرْقَدَ ، فَإِنَّهُ مِنْ شَجَرِ الْيَهُودِ»[1] .

❁ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ:

لو تأملنا قليلًا في ختام الآية الكريمة ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ لوجدنا كيف هيٰ آيات الله التي لا يقولها إلا الله تبارك وتعالىٰ ، فإن أول صراع لإبليس لعنة الله عليه مع الإنسان كان لإخراج أبينا آدم عليه السلام وأمنا حواء ، إذ كان آدم في أعظم نعيم ، وهو نعيم الجنة فكان له غاية ، وهو أن يصرف آدم عن شكر النعمة ، التي أنعم بها عليه وعلىٰ زوجه ، وقد تمكن وأُخرجا من الجنة ، وتلك قصة تتكرر في كل الأيام ، وعلىٰ الأخص في أيام الكفر والإلحاد والفساد ؛ وهل من أيامِ فتنةٍ مثل هذهِ الأيام ، فكانت حقيقة قصة آدم عليه السلام رمزًا لكل ما سيحدث ، وتحذيرًا للصراع الطويل الذي مازال مستمرًا .

وأمر آخر هو أن رمضان تفتح فيه أبواب الجنة ، وتغلق فيه أبواب النار ، وتُغَلُّ فيه الشياطين ومردة الجن ، فهو في الحقيقة شهر الجنة لو كان في الدنيا شهرًا بهذا الاسم ، ليس هذا فحسب بل إن الناس في هذا الشهر يصومون ، وهل الصيام إلا ترك الطعام والشراب والشهوة ، وكل ذلك حلال ؛ أي أنهم يتركون ما وقع فيه آدم عليه السلام وأخرج من الجنة بسببه ، وليس المقصود إلغاء الطعام والشراب والشهوة ، بل هو طاعة الله فيما أمر والانتهاء عما عنه نهىٰ وزجر ، والمقصود هو شكر الله علىٰ نعمه ، والمقصود هو الخروج من شهر رمضان إلىٰ بقية أشهر العام وسنوات العمر شاكرين لله ، مستمرين علىٰ الشكر ، لأن الشكر يقتضي

(١) رواه مسلم (٢٩٢٢).

الاستمرار على العهد، وهذا ما لم يستطعه أبونا آدم عليه السلام، وقد قال ربنا سبحانه: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥].

أرأيت كيف مثل آدم ذريته، أرأيت كيف مثل شهر رمضان الجنة، أرأيت كيف جاء النصح بالصبر على الشكر، وعدم الخضوع لأهواء النفوس، بعد الخروج من رمضان، حتى نعود مع أبينا آدم عليه السلام إلى الجنة وقد عاد كما قال الله سبحانه عنه عليه السلام: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١ ـ ١٢٢].

أرأيت أي دورةٍ مكثفةٍ على الشكر حين شرع الله لنا الصيام.

أرأيت كيف نقض الله سبحانه على الشيطان غايته حين شرع صوم شهر رمضان.

أفيشرع هذا الشرع العظيم وبهذهِ الكيفية الحكيمة الرحيمة إلا الله رب العالمين؟

ثم ماذا لو أن الله لم يشرع للأمة رمضان.؟!

فاللهم أعنا على شكرك وذكرك وحسن عبادتك.

أيمكن لبشر أن يقول هذهِ الكلمات الكريمات المعدودات لتشمل كل زمان ومكان وأخلاق وعلاجات، وتنقض على إبليس غاياته نقضًا؟! والحمد لله رب العالمين.

الآية الرابعة:

قال الله سبحانه تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾:

❋ ما بين الآية والآية:

لعل سائلًا يسأل هنا، ما دخل الدعاء في أعمال الصيام؟ ولماذا دخلت آية الدعاء وسط آيات الصيام؟ ولمَ لمْ ترتب ترتيبًا فهرسيًا كما هو المعتاد في التصنيف؟

والجواب: أولًا هذا هو الله رب العالمين، والله سبحانه هو من إليه الأمر كله، وهو من يحكم لا معقب لحكمه، وهو الحق المبين، كما قال سبحانه عن نفسه في أول سورة الحديد: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، وبعد هذا؛ فمن قال إن اتباع التصنيف العلمي في كل شيء هو الصواب؟ ومن قال إن الله رب العالمين حين أنزل القرآن صنفه تصنيفًا علميًا بحتًا كما هو بمفهوم البشر؟! فالقرآن فوق ذلك لأنه كلام الله تبارك وتعالىٰ، والله حين ينزل كتابه إنما ينزله ليصلح النفوس، وليصلح المجتمعات، وهو سبحانه

حين يشرع للنفوس وللمجتمعات فهذهِ النفوس خلْقه وليس خلق غيره.. فمن أعلم بخلق الله من الله كما قال سبحانه: ﴿وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝١٣ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٣ ـ ١٤].

وبعد هذا أقول: إن الحكمة كل الحكمة إنما هي في كلام الله، لأنه تنزيل من حكيم حميد، وأنه كلام العليم الخبير، وهذهِ الآية شاهد علىٰ ذلك كله، فالحق المطلق في أن تدخل آية الدعاء في هذا الموطن، من غير تقديم ولا تأخير، وهكذا كل آية في القرآن، وتحدي الله للإنس والجن بأن يأتوا بخلاف هذا، وأن يثبت أي واحدٍ موطنًا واحدًا لآية من آيات الله، أو كلمةٍ من كلمات الله، ليست في موضعها... أتحدىٰ بهذا والله سبحانه يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ أتحدىٰ بهذا ليس لقوتي في المحاجة إنما لأنه الحق المبين فالقوة قوة الحق، والله سبحانه يقول: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

أما موضع هذهِ الآية وحكمتها، فإن الله سبحانه بعدما شرع الصيام في شهر رمضان، وبين قيمة شهر رمضان العظمىٰ وأنها ما كانت لولا أن الله سبحانه جعل في هذا الشهر نزول القرآن الكريم، وختم آيات الصيام بشكر الله سبحانه، فإن هذا البناء الذي بناه الله سبحانه في رحاب شهر رمضان المبارك، ما كان له أن يتوقف عند نهاية شهر رمضان، وما كان له أن يتوقف عند نهاية فترة النهار، وبغروب شمس كل يوم؛ فالله سبحانه لا يربي الصائمين ليكونوا عبادًا لله في رمضان يعرفون الله في نهار رمضان، فإذا انتهىٰ رمضان انقطعوا، ولا إذا غربت الشمس انتهت عبادتهم.. هنا جاء أعظم اتصال مباشر بالله سبحانه وهو دعاء

العبد ربه ﷻ، ليوقظنا الله تبارك وتعالى أن العلاقة بين العباد وربهم تبارك وتعالىٰ مرشحة لدرجات عليا، وأنها مؤهلة للتحقق، فلقد دخل العباد شهرًا كاملًا للتهيئة لهذا الأمر العظيم، وها هو الله رب العالمين هو من يدعوهم لهذا المقام الكبير العالي، أن هلموا، فيقول سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾، أرأيت مثل هذا العرض من رب العالمين عرضًا؟ أرأيت مثل هذا التوقيت توقيتًا؟ هو من يدعوهم أن يطلبوا منه ما شاؤوا، فلم يحدد نوعًا من الطلب، إنما فتح الباب أمام كل طلب للإنسان، وما أكثر حاجيات الإنسان، وما أشد تنوعها، فهل مثل إحكام موضع هذهِ الآية إحكامًا؟، ثم إن الله سبحانه قد عَرَّض بالطلب تعريضًا فقال ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ﴾ ومن ذا لا يسأل عن ربه؟ وأي مسئول أعظم من الله سبحانه؟ ثم هو سبحانه يقربهم إليه وينسبهم إليه فيقول: ﴿عِبَادِى عَنِّى﴾، لتوحي الآية بغفلة العباد عن ربهم سبحانه، بل توحي باستبطاء الله سبحانه عباده، ومحبته لسؤالهم، لإجابة طلباتهم، وإعطائهم سؤلهم، بل محبته للقرب الحاصل بتقربهم إليه، لذلك قال: ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾، فكيف لا أكون قريبًا وأنتم تسألوني؟ لكن كيف أكون قريبًا وأنتم تبتعدون؟ نعم إن الله قريب من كل أحد، لكن الآية جاءت في موضعٍ بعد مشروعية الصيام وانتهائه... لتشير إلىٰ أن الله قد قبل منكم صيامكم، وطاعتكم لله، في شهركم، فهو الآن قريب منكم أيتها الأمة الصائمة، وإن أعظم ما تستثمرون به القرب هو دعاء الله تبارك وتعالىٰ.. كما قال النبي ﷺ «إن أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا فيه من الدعاء»[1]، فلا استثمار للقرب مثل الطلب، فإن صاحب الحاجة لا يجد وقتًا أفضل للطلب مثلما يستشعر أن الله قريب منه، وهذا القرب حاصل في كل

(١) رواه مسلم (٤٨٢).

وقت وهو أمر منطقي وضروري وهو في نهاية كل يوم من رمضان من الله سبحانه أمرٌ منطقي، كما أن القرب في نهاية رمضان كله أمرٌ كذلك منطقي، ففي الحديث عن النبي ﷺ إنه قال: «إنَّ للصائمِ عند فِطره دعوةً لا تُردُّ»[1]، فإذا كان هذا في نهاية كل يوم من أيام رمضان، فكيف إذا كان ذلك في نهاية الشهر كله؟ ولهذا جاء هذا النداء اللطيف بصيغة سؤالٍ حبيب من الرب القريب مصدِّرًا النداء لرسول الله ﷺ وهو إمام الأمة وقائدها بقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾، ومن أحق أن يسأل عن الله من رسول الله ﷺ؟ إذًا فهو المرجع البشري، فهل من أحدٍ أعلم بالله من رسول الله ﷺ؟ وهل من ممثل للأمة عند ربها أفضل من نبيها ﷺ؟

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾: إنها الدعوة اللطيفة، يحدث الله سبحانه بها رسوله ﷺ، وكأنه يستعجل عباده سبحانه.. فأي تربية هذهِ؟ وأي رسائل من الله رب العالمين لعباده؟ ومتىٰ يمكن أن يشعر العبد بهذا القرب من ربه؟ وهل يمكن أن يبلغ بعبدٍ التصور أن يخبره الله باشتياقه إليه؟ واستبطائه لسؤاله إياه، وطلبه منه وهو الله رب العالمين، هكذا يشعر المتحدث مثلي، أنه مهما تحدث أو وصف فلن يبلغ شيئًا من الحقيقة، فيرجع المرة بعد الأخرىٰ إلىٰ قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾، وهذا العجز الذي يجعلك تستسلم عند حدٍ معين من التعبير، هو من الإعجاز، الذي يريك أن ما في نفسك من الحقيقة، التي استقرت في قلبك أكثر بكثير من التعبيرات التي وصفتها، وأنك لو واصلت التعبير أبد الدهر، فسوف لن تبلغها، فتكتفي بما قلت، مؤملًا أن تكون

(١) أخرجه الطيالسي في المستند في المسند (٢٣٧٦)، والبيهقي في (شعب الإيمان).

ثمرة كلامك إثارة الحقيقة ، كما عشتها ، وربما تزيد عليه ، أو يزيد عليك ، وكثيرًا ما تجد هذا في القرآن الكريم ؛ نعم التفسير من حيث المعاني اللغوية واضح جدًا ، ولكنه من حيث المعاني الإيمانية واضح للقلوب بينما تبقىٰ الأقلام عاجزة عن إيصال ما أدركته القلوب ، فضلًا عن الإحاطة بما جاء في القرآن ، كما هو الأمر هنا: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ .

والله سبحانه لا يمل من دعاء عباده وطلبهم ، بل هو يحب منهم الدعاء ، ولذا جعله في أعلىٰ مراتب العبادة ، ويربيهم سبحانه علىٰ توثيق العلاقة به ، من خلال الدعاء كل يوم من رمضان ، وكل ليلة ففي الحديث: «للصَّائمِ عندَ فطرهِ دعوةً لا تردُّ»[1]

وطلب الإنسان من ربه فطرة فطر عليها كل الناس ، فمن لم تظهر عنده هذهِ الفطرة في الأوقات العادية ظهرت في أوقات الشدائد ، ولهذا يحرض الله عباده علىٰ أن يطلبوا منه في الرخاء ويجعله عبادة يؤجرون عليها ، فوق ما يعطيهم من طلبهم ، لئلا يطلبوا من بشر أمثالهم فيذلوهم ، وليشعروا بأنهم أعزة ، حتىٰ عند طلبهم من الله ، لأن الله هو من طلب منهم الدعاء ، ولذا قال سبحانه ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ .

وقال النبي ﷺ: «إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَسْأَلِ اللَّهَ يَغْضَبْ عَلَيْهِ»[2] وقال ﷺ «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَسْتَجِيبَ اللَّهُ لَهُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَالكَرْبِ فَلْيُكْثِرِ الدُّعَاءَ فِي الرَّخَاءِ»[3] .

---

(١) أخرجه الطيالسي في المستند في المسند (٢٣٧٦) ، والبيهقي في (شعب الإيمان).

(٢) رواه الترمذي (٣٣٧٣) وحسنه الألباني.

(٣) رواه الترمذي (٣٣٨٢) وحسنه الألباني.

❁ ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾:

السؤال عام عن الله «عني» وهو يحتمل كل شيء، لكن الله سبحانه يوجه العباد إلى نوعية جديدة من المعاني، ومنها ترك ما لا يعنيهم، وترك الجدال إلى طلبهم حاجياتهم في كل زمان وكل مكان من ربهم وحده، ولذا قال: «إذا دعان» وهذا هو النقاء السهولة والصفاء مع الواقعية في العقيدة التي لا يمكن أن يبلغها بشر يريد صناعة عقيدة، إنها العلامة على أن هذا الدين هو دين الحق وهو دين الله قطعًا، فكل تغيير في هذا يظهر التحريف والتبديل، فالتقريب للرب حتى يصوره في صوره أو مثال هذا مخالف لعظمة الإله وهو تدخُّل بشري واضح في صناعة الإله عياذًا بالله من ذلك، كما أن أي إبعاد للإله حتى الغياب عن عباده وأنه لا يتدخل في تفاصيل الحياة ولا يعلم بها، فهذا من التدخل البشري وهو باب الاشتراط على الرب وباب الانفلات للعبد... ثم كيف يكون ربًا لنا ولا يعلم بحالنا... من يقبل بهكذا رب؟!.

❁ السر في عدم إجابة بعض دعاء الأمة اليوم:

قال سبحانه: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾:

إذًا فالله تبارك وتعالىٰ لا يدعونا إلىٰ قربٍ شعوري فحسب، ولكنه قرب فعلي يجد الإنسان فيها إجابة دعوته، وأي دليل عليه سبحانه أكثر من هذا؟ وماذا أكثر من هذا الوجدان، وماذا أكثر من هذا الإكرام، وماذا أكثر من أن تجد شهود هذا لا تعد ولا تحصىٰ، في مواقف محددة، ومطالب محددة عند كل شخص



من الأشخاص ، يجدها الرجل والمرأة ، والصغير والكبير ، يجدها المضطر في البحر وفي الأجواء ، في الغابات وفي البراري ، ويجدها في الشفاء من المرض لنفسه أو لولده أو لصاحبه . . . إنها الحقيقة الواقعية ، لأن الله هو الحق المبين . . . والدعاء حقيقة عظمىٰ ، نحن نراهن عليها ، ولا نشك فيها أبدًا أبدًا ، كما أن الدعاء إذا لم تحدث إجابته الفورية ، كما هو شأن أمة محمد ﷺ اليوم ، فإن هذا لأن الله أَمَرَها بأوامر كثيرة كأمة ، ولكنها عصته سبحانه في هذا الزمان ، ومن أعظم تلك الأوامر إقامة القرآن الكريم في حياتها ، كمنهج حياة كامل شامل ، فتخلَّت عنه ، وأخذت بالمناهج الشرقية والغربية ، وما هذا إلا رحمة بهذهِ الأمة ، فلو أجابها لكان ذلك دافعًا إلىٰ غلوِّها في الضلال والانحراف والمعاصي ، ومزيد إبعادٍ لها عن القرآن ، وزيادة غرور لها ، وهي علىٰ الخطأ ، وفي هذا جاء في حديث النبي ﷺ: «لتأمرُنَّ بالمعروفِ ولتنهونَّ عن المنكرِ ، أو ليُسلِّطَنَّ اللهُ عليكم شِرارَكم ، فيدعو خيارُكم فلا يُستجابُ لهم»[1] ، **وليس رحمة بأمة محمد ﷺ فحسب ، ولكن رحمة بكل الأمم الأخرىٰ ، لأن هذهِ هي الأمة المنقذة للأمم** ، من الهلاك الذي هي عليه ، فإذا لم تهتد الأمة المهدية في صحرائها وتيهها ، فمن يدلها ؟ والعالم يلفه من كل جهاته ظلمة حالكة ، وكل الأمم أمم مشركة بالله ؛ تِعبد غير الله ، أو تعبد مع الله ، والدليل هو أنه لا توجد أمة اليوم تقول وتعتقد أن (لا إله إلا الله) إلا أمة محمد ﷺ .

لكن تبقىٰ رحمة الله تبارك وتعالىٰ بالأمة كأفراد ، يجتهدون حسب طاقتهم الفردية في العبادة ، والله تبارك وتعالىٰ لا يقنطهم من إجابة الدعاء ، لأن هذهِ

(١) رواه البخاري (٥٨١).

الدعوات خيوط بين الأفراد وبين ربهم سبحانه، والله يحبها ويقويها ويزيدها ويثبتها ويباركها... لأنهم مثل النجوم في سماء حالكة الظلمة، يهتدي بهم السائرون، في البحر وفي البر إلىٰ إن تطلع شمس الأمة من جديد، ولسوف تطلع، ولكن يبقىٰ عهد الله ثابت وهو: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، والنبي ﷺ يقول: (ما من مسلمٍ يدعو اللهَ بدعوةٍ ليس فيها إثمٌ ولا قطيعةُ رحمٍ إلا أعطاه اللهُ بها إحدىٰ ثلاثٍ: إما أنْ تُعجَّلَ له دعوتُه في الدنيا، وإما أنْ يَدَّخرَها له في الآخرةِ، وإمَّا أن يُصرَفَ عنه من السوءِ مثلُها، قالوا يا رسولَ اللهِ إذًا نكثرُ؟ قال: اللهُ أكثرُ)[1].

فأي يقين أنشأه الله من خلال رمضان في قلوب الأمة الصائمة حتىٰ تتحدىٰ الأمم بقرب ربها سبحانه وهي لا تبالي بالإلحاد والعلمانية، والشرك والكفر، والظلم الذي ملأ الأرض، وقد أصبحت أضعف أمة بين الأمم، وأصبحت الأمة المنبوذة بين الأمم، المحاربة من القوة الخفية التي تحكم العالم، لأنها الأمة الوحيدة التي تصنف كأمة محاربة للسامية، بل هي والله الأمة التي سوف تخلص العالم يومًا قادمًا قريبًا منهم.

❊ الفارق بين السؤال والجواب:

قال سبحانه: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾.

وإذا لاحظنا هنا وجدنا كيف أن الله تبارك وتعالىٰ وجّه الخطاب لرسول الله ﷺ في أول الآية وافتتاحية الموضوع، وذلك تكريمًا له وتعظيمًا، لأنه هو الرسول منه إليهم ﷺ فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ﴾ لكنه سبحانه رفع ذكر الرسول ﷺ

(١) أخرجه أحمد (١١١٣٣)، وأبو يعلي (١٠١٩).

عند إجابة ما سألوا عنه ، فما قال: (فقل إني قريب) وإنما رفع الوساطة بينه تبارك وتعالىٰ وبين خلقه ، فقال في الجواب مباشرة ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ وما قال (فقل) ، وهذا لا يقوله أي دين ، وهذا الأمر وحده دليل كافٍ وعظيم ، علىٰ أن هذا القرآن هدىً للناس ، وأن هذا الرسول الذي أنزل عليه القرآن هو رسول الله ، وهو عبد الله ، ﷺ ، وليس هو بإله ولا وسيط ، وَشَرفُه أنه عبد الله ، ولك أن تتأمل كم مرة شرّف الله رسول الله محمداً ﷺ باسم العبد في ذلك وهو في أرفع مقام. . وهل أرفع من مقام نزول القرآن عليه ، فقال سبحانه: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾ [الكهف: ١].

وقال في موطن الإسراء به من المسجد الحرام إلىٰ المسجد الأقصىٰ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

وقال عنه وقد رفعه سبحانه لأرفع مقام وذلك في المعراج: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ [النجم: ١٠ ـ ١٧].

وهذا كثير في القرآن ، والله سبحانه إذ يقول هذا في القرآن الكريم لَيَحْمِي الأمة المهدية الهادية مما وقعت فيه الأمم من الشرك بالله ، وعبادة غير الله سبحانه ، من الأنداد والآلهة المختلفة ، من أنبياء ، أو ملائكة ، أو نور ، أو ظلام ، أو شياطين ، أو أحجار ، أو أشجار ، أو أعضاء بشرية ، أو حيوانات ، أو نباتات ، أو يعبدون بعضهم بعضًا ، أو اصطناع آلهة اسطورية ، **فهذِهِ الآية الكريمة حماية**

منه سبحانه لعقل الإنسان، وليحفظ كرامة الإنسان، وهو أكرم خلق الله علىٰ هذهِ الأرض، وهو من سماه الله خليفة في الأرض، فكيف ينحدر صاحب الكرامة والعقل والتكليف؟ فينحط ليعبد ما ذُكر من مخلوقات؟ هو سيدها؟ وقد سخرها الله له؟ وجعلها له طعامًا أو شرابًا أو جمادًا أو حماية أو غير ذلك؟ ثم هو يترك عبادة خالقه وربه الذي لا إله إلا هو؟ فأي خير للإنسانية وعقلها وكرامتها جعله الله في هذهِ الآية! وفي هذهِ الفقرة العظيمة والعبارة الكريمة ـ وكل ما في القرآن عظيم وكريم.

قال سبحانه: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾، وما قال لأكرم خلقه ﷺ: (إذا دعوك)، أو حتىٰ قال له: (فقل إني قريب).

وهذا الأمر هو أساس دعوة جميع الأنبياء عليهم السلام، وكل من يقول بعبادة أحدٍ غير الله فقد كذب علىٰ الله، والأنبياء عليهم السلام أكرم وأطهر وآمن من أن يكلفهم الله سبحانه هذا التكليف ثم يخونون أعظم خيانة.. وهل من تهمة وإجرام في تاريخ البشرية كلها أعظم من تهمة الأمم لأنبيائها بالخيانة؟ تعالىٰ الله عن ذلك علوًا كبيرًا، وتعالىٰ الأنبياء عن ذلك علوًا كبيرًا، ولذا قال الله سبحانه وتعالى في القرآن العزيز، مبرءًا جميع الأنبياء عليهم السلام ومفصلاً الأمر تفصيلاً: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ ۚ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوا أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ

بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيۡرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبۡغُونَ وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾ كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾

[آل عمران: ٧٩ ـ ٨٩].

ويقول سبحانه عن بعض هؤلاء المعتدين على انبيائهم ـ عليهم السلام ـ المتهمين لهم بأنهم أمروهم أن يعبدوهم من دون الله تبارك وتعالى، أو أنهم قالوا لهم نحن آلهة، أو نحن أبناء الله وأحباؤه، أو نحو ذلك، من شركٍ بالله، فقال سبحانه:

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ

وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٠ ـ ٣٥].

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَعْفُوا۟ عَن كَثِيرٍ ۚ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٥ ـ ١٩].

❋ متى تحذف كلمة «قل»:

قال سبحانه: ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾.

﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾: ربما حسب الملحد أو الجاهل أن رَفْع كلمة (قل) من هذهِ الآية جاء ضربة حظ غير مقصودة، فالله سبحانه لم يقل (وإذا سألك عبادي

عني فقل) وإنما قال ﴿فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾!

فهذا لا يقوله من عرف الله رب العالمين، وماذا يعني أن يكون هذا الكلام كلامه!

ومن شك في هذا فلينظر إلى الآيات الأخرى، التي يسأل فيها الناس الرسول ﷺ سؤالًا، وسجل الله ﷻ سؤالهم فلم يجبهم الله تبارك وتعالى، إلا بالواسطة أي بقول (قل) فقال سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١٨٩].

وقال سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٥].

وقال سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلِ ٱلْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩].

وقال سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠].

وقال سبحانه: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

وقال سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [المائدة: ٤].

وقال سبحانه: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٧].

هذهِ أسئلة علمية عملية، ولابد لهم من مرجع بينهم يرجعون إليه، فهل كان هناك مرجعًا إلا رسول الله ﷺ؟

وأما الدعاء فلا واسطة فيه بين العبد وربه سبحانه... فلتدع الله مباشرة، فالواسطة في الدعاء شرك بالله، ثم إن الله سبحانه أثبت في كل تلك الآيات (يَسْأَلُونَكَ) لأنهم فعلًا سألوه، أما إجابة الدعاء فمع أن الله أثبت سؤالهم فقال: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى﴾ إلا أن هذا مقام رسولهم ﷺ، مثلما هم يحتاجونه فلا فرق، فإن الكل عبد وفقير ومحتاج لله رب العالمين أمره أن يقولها لهم بكل وضوح وجدية ومباشرة ﴿قُلْ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّى لَن يُجِيرَنِى مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾ إِلَّا بَلَٰغًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِسَٰلَٰتِهِۦ ۚ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَإِنَّ لَهُۥ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾، وليس في هذا إلا مزيد قرب منه تبارك وتعالىٰ، ولهذا قال الله عن خيرة خلقه ذلك فقال سبحانه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾...

هذا هو طابع التوحيد ، فلا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو علىٰ كل شيء قدير ، هذا الطابع هو طابع القرب المطلق ، مع العظمة المطلقة ، والدنو المطلق من عباده ، مع العلو المطلق عن مخلوقاته ، وأما المعتاد عند الناس **فإنَّ علوَّ بعض العباد يريهم أَن ثمة بروتوكولات لا ينبغي لهم أن يتنازلوا عنها أبدًا** في الاقتراب من أقل الناس وأضعف الناس وأفقر الناس وأحوج الناس ، لكن الله رب العالمين بخلاف ذلك لأنه سبحانه لا ينقصه شيء أبدًا ، بل إن من عظمته تبارك وتعالىٰ قربه من عباده ، ومن تعاليه سبحانه دنوه من عباده . . لأنه عليّ علوًا مطلقًا فلا ينقصه الاقتراب منهم أبدًا لأنه قريب كذلك قربًا مطلقًا كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ سبحانه ولأنه يحبهم ، فهو لا يحتاج إلىٰ شيء ، ولا ينقص كماله شيء ، ولا تؤثر فيه الحوادث ، ولا تغيره الأحداث ، فهو خالق كل شيء سبحانه وتعالى ، فهذا الكمال بهذا الإطلاق لا يمكن لأحدٍ أن يمثله ، أو يفعله ، إلا رب العالمين .

ثم ما أنسب الدعاء للصائم ؛ فلكأن الدعاء خرج من رحم الصيام ، أو هو ثمرته التي لابد منها ، فلأي شيء يكون طلب الإنسان عادة ؟

إن طلبه في العادة إنما يكون لحاجياته الضرورية ثم الأقل ضرورة فالأقل ، فهل توجد ضرورة عند الإنسان مثل ضرورة الطعام ، وضرورة الشراب ، وضرورة ضبط الغرائز ، وخطورة هيجانها ، وضرورة الرزق الحلال من كل ذلك ، هكذا شعور الصائم في نهار رمضان ، فتربىٰ طوال النهار علىٰ ترك ذلك كله ، فكان دعاؤه أصدق لأنه نابع من معاناةٍ عاشها يومًا كاملًا ، بل ثلاثين يومًا ، ثم إن دعاءه هنا لكل الجوعىٰ والعطشىٰ وأصحاب الضرورات ، من بني أمته ،

ومن الناس كافة، فكلهم عباد الله ويدخلون في قوله (عِبَادِي) هذا هو الأصل، ثم هو دعاء مطلق في كل شيء، ولكل فرد حاجياته الخاصة التي يود أن يدعو بها.. فالباب مفتوح فليدع بما يشاء، وإن كان السباق يدل على أنهم هم المؤمنون الصائمون وحتى على هذا القول وهو الراجح فإن فيه تحفيزًا عظيمًا للآخرين أن يدخلوا في شرف ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾.

ثم إن من عاش معاناة المساكين خلال هذا الشهر الكريم، من عطش وجوع وما إلى ذلك، ذاق ما يتجرعه الفقراء والمساكين طوال السنة، وربما طوال العمر، فلم يكن أمامه إلا أن ينفق عليهم، ويعمل لهم المشاريع التي ترفع حاجتهم، وتصدّ فقرهم ويدعُ الناس لذلك، ويوقظهم من غفلتهم لنجدة إخوانهم، وإلا فيدعو الله سبحانه لهم، من خالص قلبه وصدق مشاعره، التي ذاقت بعض ما يذوقه هؤلاء وأبناؤهم، طوال رحلة الحياة... وسواءً كان هذا الصائم غنيًا أم فقيرًا، فإنه لن يترك الدعاء لهؤلاء ولأمته وللناس كافة، وبهذا ترى كيف ربط الدعاء الإنسان بالإنسان، فلقد صنع الصيام منه أخًا صادقًا لكل مؤمن ولكل إنسان.

وهنا أتساءل: أيمكن أن يؤدى التصنيف العلمي المحض هذا الدور التربوي الهائل في العلاقة مع الله؟ وفي النفس؟ وفي المجتمع المؤمن؟ وفي الإنسانية قاطبة؟

❃ تقول: أَنك تدعوه و أنت على دينك!

قال سبحانه: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

أيها الأنسان المكرم: إنك إن مت وأنت لم تجب دعوة ربك بدعائه وعبادته، ولم تتذوق قربه، فقد خسرت خسرانًا لا نظير له أبدًا.

ولكنك ربما تقول: إنك تدعوه وأنت علىٰ دينك! جاءك الجواب بعدها مباشرة من كلامه هو سبحانه: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾، فالله ﷻ يقصر استجابتهم عليه وحده، لا شريك له، وغير هذهِ الاستجابة غير مقبولة أبدًا، بل هي ضد المنطق... إذ كيف يدعوك سبحانه، وتكون الاستجابة لسواه؟ وهي ضد الحق، ولذا قال: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي﴾ ويدخل في هذا كل العباد، بما فيهم الأنبياء عليهم السلام، بل هم أولىٰ الناس بقوله (عِبَادِي)، ثم إن من المنطق أن إجابة الدعوة إنما تكون لمن دعا وطلب، ومن دعاكم هنا هو الله رب العالمين، وليس النبي، فالنبي مبلغ لكم، ثم قال سبحانه: ﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِي﴾ ولا إيمان إن دعوت أحدًا مع الله، وما من واحدٍ في هذهِ الدنيا لا يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يعتبرُ مؤمنًا بالله بل هو مشرك بالله، فهل يصح لأي إنسان أن يقول أنا مؤمن مشرك؟ ومن ثم ختمها بقوله سبحانه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ فلا رشد أبدًا مع الشرك، فإن الرشد هو مرحلة من العمر والعقل إذا بلغها الإنسان يصبح معها أهلًا للتكليف وحمل الأمانة، فهذا هو ما يؤهله شهر رمضان ـ شهر القرآن ـ للصائم، وأي عقل يبقىٰ للإنسان إذا كان الله يدعوه مباشرة وهو يجعل وسيطًا بينه وبين الله؟ وأي عقل للإنسان وهو المخلوق الأكرم علىٰ الأرض إذا اعتقد بأن غيره من المخلوقات قادر علىٰ أن ينفعه ويضره؟!

ولهذا جاء حديث عظيم عن النبي ﷺ يقول فيه: «أنا والجن والإنس في بناء عظيم أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر غيري»[1]، وهو مروي في بعض الكتب السابقة.

❊ اطلب من ربك الرشد.. فهو أعز مطلوب:

فقال سبحانه: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾: ومن المعاني الأساسية للرشد هو الثبات على الصراط المستقيم كما قال أحد أئمة التفسير وهو الأمام الأندلسي البقاعي قال في قوله ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾: أي يكونوا على رجاء من الدوام على إصابة المقاصد، والاهتداء إلى طريق الحق، قال الغزالي: والرشد حسن التصرف في الأمر حسًا أو معنى في دين أو دنيا.

من هذا يتبين أن الغاية من هذهِ العبادات السالفة الذكر، ومنها قراءة القرآن وفهمه، وشهر رمضان، والدعاء، هو الثبات على طريق الحق، سواء في الدنيا أو الدين، وليس المقصود هو استقامة لحظة أو شهرًا فحسب، فرمضان ليس لرمضان وحده، بل فيه تصنع الحياة كلها حين يصنع رجالها في شهر رمضان، فالرشد يجمع ما بين دقة الفهم، وسعة العلم، وقوة الإيمان، والثبات، والاستقامة على الصراط والثبات عليه.

وفي القرآن الكريم سورة اسمها (سورة الكهف) ورد فيها ذكر أربعة

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان (وهو ضعيف).

قصص من أعظم وأهم القصص، ولأهمية هذهِ السورة فإنه يشرع لنا قراءتها علىٰ الأقل كل يوم جمعة أو ليلتها، **وأول هذهِ السورة قصة الفتية** أصحاب الكهف؛ الذين قاموا إلىٰ الحاكم الجائر في عهدهم وهو (دقيانوس) كما تعرفونه، وطالبوه بالعدل بين الناس وبعبادة الله وحده، وإقامة الكتاب المقدس الذي عندهم، وهو الإنجيل علىٰ أرجح الاحتمالات.. فأراد الملك البطش بهم، وأمهلهم إلىٰ الغد ليفكروا ويرتدعوا، لكنهم فرّوا من بطشة إلىٰ كهفٍ ناءٍ بين الجبال، وكان دعاؤهم الذي ألهمهم الله إياه، دعاء مخصوصًا عظيمًا، فتأمل أهمية ذلك الدعاء لذلك الظرف، ولأمثاله مدىٰ الحياة، فقال الله سبحانه عنهم: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ فَقَالُواْ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةٗ وَهَيِّئۡ لَنَا مِنۡ أَمۡرِنَا رَشَدٗا﴾ [الكهف: ١٠]، فاستجاب الله لهم دعاءهم وكان لهم السلامة من الظالم، ثم كان العز والتمكين، والذكر الحسن أبد الآبدين، ويكفي أن ينشر الله قصتهم في القرآن العظيم.

وأما القصة الثانية العظيمة في سورة الكهف، فهي قصة موسىٰ والخضر عليهما السلام، بعدما أحال الله تبارك وتعالىٰ موسىٰ عليه السلام علىٰ من هو أعلم منه، وأعلم واحد علىٰ الأرض، وهو ملك من الملائكة اسمه الخضر عليه السلام، فذهب إليه عند مجمع البحرين، وحين وجده طلب منه موسىٰ عليه السلام طلبًا عظيمًا فقال سبحانه: ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا﴾ [الكهف: ٦٦]، فالرشد هو طلب أصحاب الكهف من ربهم، وهو هنا طلب موسىٰ عليه السلام من معلِّمه الخضر عليه السلام، والرشد بالنسبة لأصحاب الكهف أرادوه سلوكًا دائمًا، واستقامةً وثباتًا علىٰ الحق في أدق تفاصيله وإلىٰ أبعد مدىٰ... فكان من أمرهم ما كان وتولىٰ الله أمرهم بكل تفاصيله، والقصة عظيمة وواضحة في القرآن الكريم، وأما موسىٰ عليه السلام فقد طلب الرشد في العلم، وهو الهداية إلىٰ الحق في العلم، لأن العلم هو

من يقود العمل، والعلماء الحقيقيون هم من يقودون العاملين، ولأنه ليس كل عالم راشد. وهكذا يجعل الله من رمضان أكبر محضن لإعداد العلماء الراشدين والحكام الراشدين والأمة الراشدة.

وهنا أعود لأسأل: هل رأيت الغاية العزيزة كيف جعلها الله سبحانه للمؤمنين في نهاية شهر رمضان؟ إنه الرشْد والرَشَد وأن يكونوا هم الراشدين وكما ختمها الله سبحانه بقوله ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾.

ألا يا أيها القارئ المكرم: افزع إلىٰ ربك واهتف به هتاف المضطر، واطلب منه هذا الطلب العزيز؛ (الرشد)، وقد أراك الله سبحانه كيف طلبه كرام خلقه، فأعطاهم، وأخرجهم من حيرتهم، ونصرهم علىٰ طاغية زمانهم، كما أراك كيف أُكرمَ موسىٰ عليه السلام بعلومٍ لم يكن يفكر بها أبدًا، وأوصله إلىٰ أَسرار دقيقة في العلوم، وإلىٰ آداب عميقة في السلوك...

وكم رأينا أناسًا تاهوا حيارىٰ في ظلمات الفتن والأفكار، وظلمات الفِرق والأحزاب، لجأوا إلىٰ الله في ليلة مظلمة، لا يرون فيها إلا مطلبهم العزيز، واثقين بإن الله سوف يخرجهم من ظلمتهم، واستمروا في طلبهم، وبكوا ونحبوا، وذلك من شدة حرقتهم بالفتن، واحتراق قلوبهم بأفكار الضلال، فأجاب الله دعاءهم، ولبىٰ هتافهم، كما قال الله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فهل من لم يؤمن بالله يرشد؟ وهل من لم يسأل الله وحده يرشد؟ ثم أي عذر لمن دعاه ربه سبحانه ولم يلبي هو دعاءهَ؟ ما عزاء مَن قيل له اطلب فلم يطلب؟!

الآية الخامسة:

قال ربنا ﷻ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

❊ انظر إلى الهداية في الفراغ... ما بين الآية والآية

سبحان الله: كيف جعل الدلالة عليه والهداية إليه لا تنبعث من كلماته الكريمة فحسب، وإنما مما بين كلماته، ولا تنبعث من آياته فحسب وإنما من الفراغات التي بين آياته.. (فما بين الآية والآية هداية، على أن هذا الكلام كلام الله وحده، الذي أنزله على رسوله ﷺ، وأنه لا يقدر أحد على إنشاء هذا الكلام أبدًا حتى لو كان رسول الله ﷺ، وقد قال الله سبحانه للناس عن رسوله ﷺ: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦]، وحاشا رسول الله ﷺ أن يفعل ذلك، لكن الله أراد أن يُريَ الناس الحزم في كل ما يتعلق بالقرآن العظيم، وأنه لا ولن يقدر أحد من الخلق على إنشائه، ولن يستطيع، وأنه لا سماح في هذا لِأحدٍ، حتى رسول الله ﷺ، وهو الذي أنزل عليه القرآن، فكيف بمن سواه؟!).

سبحان الله كيف جاءت الآية السابقة تتحدث عن الدعاء ثم جاءت هذه



الآية بعدها تتحدث في أولها عن معاشرة النساء ؟!

فمن ذروة التلذذ بأعلىٰ درجات القرب من الله ، وذلك بالدعاء الذي هو مخ العبادة وفحواها ، إلى هذه الآية وأولها ذروة التلذذ بالشهوة الحلال ، حيث تلذذ الأزواج بالزوجات ، والزوجات بالأزواج... فكم هو البون شاسعًا في الناس بين هذين الأمرين ؟!

فإن لذة الخشوع في الدعاء وغيره ، ولذة الشهوة كلاهما في الإنسان الواحد.. فلا انفصال في حقيقة الأمر فكيف يفرق بينها.

ثم اللذة لأنفسهم إلا باللذة.. والأمر يعرف بأشباهه ، ولقد أعجبني الإمام أبو حامد الغزالي حينما سأله سائل عن وصف لذة الخشوع ، فقال له: هل رأيت لذتك حال معاشرتك أهلك كيف هي ؟ قال: بلى ، قال: كذلك لذة الخشوع.

(أرأيت دينًا أعظم من هذا الدين ؟ أرأيت كلامًا مثل هذا الكلام الكريم ؟) هكذا هو القرآن يجمع أطراف الحياة بدون أدنىٰ تناقض ، هذا هو دين الحياة العملية ، لا عيب فيه ولا نقص ، فالناس ذوي الرهبانية ، والأديان المخالفة لدين الله تقول: أين الدعاء من الشهوة ؟ أليس هذا عيبًا أو تناقضًا ؟! والجواب: هذهِ هي الفطرة ، والإسلام هو دين الفطرة ، والله سبحانه قال: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠] ، ولما خالفت أديان ، هذهِ الفطرة انتكست أيما انتكاسة ، فلقد حاولت أمم أن تظهر قدسيتها ونزاهتها ، فافتضحت

في قدواتها وأعلىٰ رجالاتها ، فضلًا عن عامتها ، فلقد حرَّم رجال الدين في أشهر الفرق النصرانية علىٰ أنفسهم الزواج ، فانتشر بينهم أفعال قوم لوط ، والزنا في الأديرة والكنائس ، حتىٰ ظهر عفنهم علىٰ العالمين ، وأصبح البابا يشكو من تلك المخازي ، وحَرَّمت البوذية علىٰ رهبانهم الزواج ، فكانت فضائحها أكثر من فضائح النصرانية وأنكىٰ .

ويكفيك أن تنظر في هذهِ الآية التي أمامك ، لترىٰ أي رقي في هذا الدين ، ألا يكفيك أن الذي يشرع في هذا الأمر هو الله رب العالمين ؟ أم لا يكفيك أن المخاطب في هذهِ الآية هو رسول الله ﷺ ، وأصحابه وهم خير الناس بعد الأنبياء عليهم السلام ؟ أم لا يكفيك أن تتأمل كل عبارة من عبارات الآية الكريمة لترىٰ أنه لا منافاة أبدًا ما بين العبادة والجنس الحلال ؟ كيف وهو دين يجعل عملية ممارسة الجنس مع الزوجة عبادة ؛ هكذا هو الإسلام وماذا أكثر من ذلك ، فقد ثبت: «أنَّ ناسًا من أصحابِ النبيِّ ﷺ قالوا للنبيِّ ﷺ بعد أن قال لهم: «في بُضع أحدكم صدقة» قالوا: يا رسول الله: أيأتي أحدنا شهوته ويكون له في أجر ؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أما يكون عليه وِزر ؟ قالوا: بلى ، قال: فلم تحتسبون بالحرام ولا تحتسبون بالحلال» صحيح ، وفي رواية أخرى قالوا: يا رسولَ اللهِ أيأتي أحدنا شهوتَه ويكون لهُ فيها أجرٌ ؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرامٍ أكان عليه فيها وزرٌ ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلالِ كان لهُ أجر»[1] .

هكذا كان الاستغراب من الصحابي راوي الحديث نفسه ، لأن هذا الفهم للعبادة فهمٌ جديد ، فبيَّن النبي ﷺ ، وعلَّلَ له الحكم تعليلًا منطقيًا ، وذلك بقوله:

(١) رواه مسلم (١٠٠٦).

«أرأيتم لو وضعها في حرامٍ أكان عليه فيها وزرٌ؟ فكذلك إذا وضعها في الحلالِ كان لهُ أجر».

تأمل الرقي في التعبير عن كيفيةٍ جنسية، أي الآلية والطريقة، ومع هذا فإنك لا تشعر أبدًا أنه يتحدث في هذا، بل تشعر أنه يتحدث في عملٍ صالح وإنه لكذلك، ويتحدث في عبادة وهو كذلك، ولهذا فإن ثمة دعاء لمن أراد أن يأتي أهله، يعلمنا إياه النبي ﷺ: «أما إنَّ أحدَكم إذا أتىٰ أهلَه، وقال: بسمِ اللهِ، اللهمَّ جَنِّبْنا الشيطانَ وجَنِّبِ الشيطانَ ما رزَقْتَنا، فرُزِقا ولَدًا لم يَضُرَّه الشيطانُ»[1].

وقد خطب النبي ﷺ يومًا في المؤمنات فكان من خطبته أن قال: «ألا هل عستِ امرأةٌ أن تُخبِرَ القومَ بما يكون من زوجِها إذا خلا بها؟! ألا هل عسىٰ رجلٌ أن يُخبِر القومَ بما يكون منه إذا خلا بأهله؟! فقامت منهن امرأةٌ سَفْعاءُ الخَدَّينِ فقالت: واللهِ إنهم ليفعلون، وإنهنَّ لَيفْعَلْنَ قال: فلا تفعلوا ذلك، أفلا أُنبِّئْكم ما مِثلُ ذلك؟ مثلُ شيطانٍ أتىٰ شيطانةً بالطريق؛ فوقع بها والناسُ ينظُرون»[2].

وحكمة أخرىٰ لمجيء هذهِ الآية الكريمة في ختام آيات الصيام؛ فهذهِ الآية الكريمة هي أكثر آيات الصيام تفصيلًا للأحكام بينما الآية الأولىٰ تتحدث عن فرضية الصيام وغايته التقوىٰ، والثانية تتحدث عن تخفيف أمر الصيام وعن من لم يصم، والثالثة تتحدث عن زمن الصيام وهو شهر رمضان، وتتحدث عن القرآن الكريم، وأما التي بعدها فإنها تتحدث عن الدعاء، وغاية ذلك كله وهو الرَشَد، وأما هذهِ الآية فإن حديثها عن تفاصيل أحكام الصيام، وهذا إن دل علىٰ

(١) رواه البخاري (١٤١).

(٢) مساوئ الأخلاق للخرائطي (٤١٣).

شيء فإنما يدل على أن الأحكام التفصيلية وإن كان لها أهميتها لأن بها كان الختام، إلا إن تأخرها وتقديم الآيات الأخرى عليها ما جاء إلا ليبين سبحانه تقديم الغاية على الوسيلة رغم وجوب الوسيلة، وأن لا تشغلنهم الوسائل على الغايات، ولا تستغرق اهتماماتهم فيغرقوا في بحر الوسائل وينسوا الأهداف العظمى والغايات الكبرى للصيام، وخصوصًا أن الصيام يستبد باهتمامات الصائم اليومية، فيشغله العطش والجوع عن أهداف الصوم وغاياته... وهذا أمر خطير يستحق الاهتمام والرعاية، ولهذا الأمر أخّر سبحانه تفاصيل أحكامه إلى آخر الآيات والله أعلم.

لن يستطيع قلبك أن يغيب عن الله تبارك وتعالى وهو يقرأ الأحكام التفصيلية أبدًا، مع أنها أحكام فرعية عملية... لأن الله سبحانه هو من يحدِّث عباده، فإن لحديث الله تعالى مذاقًا لا يشبهه مذاق، وروحًا لا توجد في غيره، لذا يجد المرء أن روحه تتزكى، وهو يقرأ كلام الله تبارك وتعالى، وتعلو وتتربى، حتى وربنا سبحانه يحدثنا في تفصيل الأحكام ودقائقها، مثلما هو الأمر في هذهِ الآية الكريمة وفي القرآن الكريم كله.

والآن فلننظر في الآية الكريمة، وكيف أن الله تبارك وتعالى فصل أحكام الصيام تفصيلًا في آية واحدة، قال ربنا سبحانه: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ

حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٧].

❊ وماذا في قوله سبحانه: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾:

قوله سبحانه: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾: يعطيك أن هذا القرآن لم ينزل جملة واحدة، في صحف، أو في ألواح، أو حُفِظ مرة واحدة في الصدور، بل نزل القرآن شيئًا فشيئًا، وأن نزوله كان لبناء الإنسان شيئًا فشيئًا، فكانت الأحداث تقع على الأرض، والله تبارك وتعالى يُنْزِلَ وحيه على رسوله ﷺ بالقرآن، ليهديهم في أمرهم ذاك، ويضعهم بنفسه سبحانه على الصراط المستقيم، وليكون ذاك المجتمع بأخطائه وبتصويبات الله ﷻ له هو النموذج الواقعي لكل مجتمع واقعي قادم، إذاً فالمجتمع الذي أنزل عليه القرآن يقع في الخطأ، نعم لأنه مجتمع بشري، والله قادر أن يجعله مجتمع ملائكي معصوم لا يخطئ أبدًا، ولكن ماذا ينفع هذا في حياة الناس وهم خطاؤون بطبعهم، ثم ماذا يصنع الناس إذا ما وقعوا فيما وقعوا فيه من إشكالات وأخطاء، أو أصابتهم المصائب، وواجهوا المكاره؟ قال سبحانه: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ۝٧ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ۝٨ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٧ ـ ٩] قال سبحانه: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ۝٩٤ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٤ ـ ٩٥].

هذهِ المثالية لا تصلح لهذا الدين أبدًا، لأنه الدين الأخير، ولأن الله أَراده

خالدًا قابلًا لاستيعاب كل الحالات المتجددة، فكان التدرج في التربية والتشريع، وكانت المرحلية التي لا تقتل النفس بضخة واحدة من الإيمان، ربما أهلكتها، أو أرهقتها، كما يذهب النور المفاجئ بالبصر، والله سبحانه هو خالق النفس، وهو أعلم بسعتها واستيعابها، وهو أعلم كيف يأخذها برفق كي تستمر في المسير، وكيف يجعلها تتفجر بالعطاء، وهو أعلم كيف ينتشلها من خطئها إن أخطأت، ويجعل من الخطأ وقودًا، يطلقها إلىٰ أعلىٰ وأعلىٰ، ولا يتوقف علوها أبدًا، **فهذهِ الآية واضحة أنها جاءت بحكم جديد لم يكن موجودًا**، فقوله سبحانه: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ إنما يعني أن هذا الأمر كان قبل نزول هذهِ الكلمة الكريمة حرام عليهم، وأنه الآن قد نزل التخفيف، وأنهم أُخذوا في المرحلة التي سبقت بالشدة، ورُبّوا بالثقيل، وعانوا ما عانوا، حتىٰ إذا استقامت نفوسهم، وأَلِفت الأشد جاءهم من الله تبارك وتعالىٰ التخفيف، يحمله قوله سبحانه: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾.

وقصة هذا الحكم هو أن الله سبحانه حين شرع لهم الصيام، لم يكن الصيام كما نعرفه اليوم، بل كان الصيام طوال اليوم والليلة ولا يحل للإنسان أن يأكل، إلا بعد المغرب فقط، فإذا دخل وقت المغرب حرم عليه الأكل والشرب إلىٰ دخول وقت صلاة العشاء وهذا الوقت يساوي الآن ساعة ونصف تقريبًا، وذلك في جزيرة العرب والتي هي موطن التشريع، وفوق هذا فإنه كان إذا غَفَتْ عين الصائم ولو لحظة واحدة بعد المغرب واستيقظ فقد حرم عليه الأكل والشرب إلىٰ الغد ويبقى بانتظار غروب الشمس ليحل له الطعام، أي عليه أن يواصل الصيام إلىٰ الغد ليكمل يومًا جديدًا مع شدة ما يلاقيه الصائم في الصيف من لهيب الصحراء العربية وشدتها، وشدة الأعمال فيها، لذا كان جيل التشريع هو

الجيل الذي عاني ما عاني وما كان الله ليكلفهم ما لا يطيقون، بل يكلفهم ويعينهم ويرعاهم ثم يخفف عنهم، وكان في مقابل ذلك في بعض التشريعات يبتدأ بالأخف فالأثقل والأثقل حتىٰ يتدربوا عليه أو يتدربوا علىٰ تركهُ كما هو الشأن في تحريم الخمر، فلقد حرمها الله سبحانه شيئًا فشيًا حتىٰ حرمها بالكلية، فلو أنه أخذهم مرة واحدة لانقطعوا.. ولا يزال يربيهم حتىٰ يستقر التشريع بالأكمل والله أعلم بنفوس عبادِهِ وقد قال ﷻ: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وانظر الآن في القصص التي حصلت حتىٰ نزلت هذهِ الآية بالتخفيف العظيم، وحتىٰ وصَلَنا هذا التشريع في وضعه الكامل التام، كما هو الآن والحمد لله رب العالمين.

وفي الحديث: «كَانَ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ ﷺ إِذَا كَانَ الرَّجُلُ صَائِمًا، فَحَضَرَ الإِفْطَارُ، فَنَامَ قَبْلَ أَنْ يُفْطِرَ لَمْ يَأْكُلْ لَيْلَتَهُ وَلاَ يَوْمَهُ حَتَّىٰ يُمْسِيَ، وَإِنَّ قَيْسَ بْنَ صِرْمَةَ الأَنْصَارِيَّ كَانَ صَائِمًا، فَلَمَّا حَضَرَ الإِفْطَارُ أَتَىٰ امْرَأَتَهُ، فَقَالَ لَهَا: أَعِنْدَكِ طَعَامٌ؟ قَالَتْ: لاَ وَلَكِنْ أَنْطَلِقُ فَأَطْلُبُ لَكَ، وَكَانَ يَوْمَهُ يَعْمَلُ، فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ، فَجَاءَتْهُ امْرَأَتُهُ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ: خَيْبَةً لَكَ، فَلَمَّا انْتَصَفَ النَّهَارُ غُشِيَ عَلَيْهِ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٧] فَفَرِحُوا بِهَا فَرَحًا شَدِيدًا، وَنَزَلَتْ: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ [البقرة: ١٨٧]» [1].

(١) رواه البخاري (١٩١٥).

وعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ ﷺ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ [البقرة: ١٨٧] عَمَدْتُ إِلَىٰ عِقَالٍ أَسْوَدَ، وَإِلَىٰ عِقَالٍ أَبْيَضَ، فَجَعَلْتُهُمَا تَحْتَ وِسَادَتِي، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ فِي اللَّيْلِ، فَلاَ يَسْتَبِينُ لِي، فَغَدَوْتُ عَلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَذَكَرْتُ لَهُ ذَلِكَ فَقَالَ: «إِنَّمَا ذَلِكَ سَوَادُ اللَّيْلِ وَبَيَاضُ النَّهَارِ»[1].

وهذهِ القصص تحدث أمثالها في كل المجتمعات وكل الأوقات لكن حين تَحدَّث رب العالمين وأنزل بها القرآن عظمت، وكملت، وخلدت، وأصبحت منهج حياة خالدة، لكل الأمم، وها نحن نقرأها اليوم كما قرأها من قبلنا، لم يتغير منها حرف واحد، لا لأنها قصة فلان أو قصة العرب أو غير العرب، إنما لأن مَنْ تحدث بها هو الله رب العالمين، فأصبحت العبرة في ماذا قال الله رب العالمين؟ وأصبح المنهج والبحث في حديث الله رب العالمين.

وبهذا أُخمدت فكرة شيطانية قديمة، أن هذا الدين لا يصلح إلا لذاك الجيل! ذلك لأن العبرة بما قال الله ﷻ، لا بما حدث من أحداث فالأحداث فانية وأشخاصها ميتون، وإن كان العلم بها مهم لفهم مراحل التشريع، ولأن الله تبارك وتعالىٰ لو أرادها لوقتها لأنزل عليهم التشريع مرة واحدة، مثل الكتب السابقة كالتوراة والإنجيل وغيرهما فقد أنزلها الله سبحانه في ألواح مرةً واحدة وانتهىٰ الأمر، ولكن الله سبحانه أراد التشريع بالقرآن خالدًا في العالمين، وأراد ذاك الجيل قدوة قليلة في العالمين، ويتحمل عبئ التطبيق، وامتثال التدرج في التشريع، حتىٰ يكتمل التشريع مع أحداث الحياة وتدرجاتها، لأجل العالمين

(١) رواه البخاري (١٩١٦).

القارئين إلىٰ يوم القيامة ولهذا كان آخر ما نزل كما هو مشهور قوله سبحانه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣].

وبهذهِ الآية تعلمنا لماذا كان كل ذلك، وعلمنا بأن هذا الكمال لكل الأمم، وأن من يقول: أنا لا آخذ الفوائد من الشمس ولا القمر ولا الهواء ولا الماء ولا كذا وكذا لأن هذهِ الأشياء قديمة أهون وأخف ممن يقول: أنا لا آخذ القرآن لأنه قديم! ذلك أن القرآن كلام الله وأما الشمس وغيرها فهي خلق الله... فكيف تأخذ بالدون مع أنه قديم ولا تأخذ بكلام الله وهو رب العالمين، ثم إن الشمس أقدم من نزول القرآن بملايين السنين ومع هذا فإن البشرية لم ولن تستغني عنها أبدًا.. فكيف تستغني عن القرآن وقد جعله الله نورًا وهدىٰ للناس؟ فهل النور والهدىٰ للناس يصبح قديمًا؟!

❊ رعاية الله ورحمته وعلمه:

قال سبحانه: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡ﴾.

هذهِ الكلمات الكريمة تدلك علىٰ رعاية الله لهذا الصنف من الخلق، وهو الإنسان، وخصوصيته عند ربه سبحانه، فالله هو الذي كرّمه بخلقه له، وكرمه فشرع له، ولم يتركه هملًا، أو يتركه لاجتهاده يعيش التجارب التي تهلكه، وربما تنتهي حياته كلها، كما قال الله سبحانه: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ بَلۡ أَتَيۡنَٰهُم بِذِكۡرِهِمۡ فَهُمۡ عَن ذِكۡرِهِم مُّعۡرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وها نحن نرىٰ هذا التشريع قد بلغ تنظيمه في أخص خصائص الإنسان، وهو شهوته الحلال وعلاقته بزوجته، وعلاقة الزوجة بزوجها.. وفي الحقيقة

فإن الإنسان يعجز عن شكر ربه تبارك وتعالىٰ على نعمة هذا التشريع... فيبقىٰ متسائلًا: أإلىٰ هذا الحدّ يبلغ تكريم الله لنا، حتىٰ ينظم لنا علاقاتنا، ولم يتركنا كالبهائم، كما هو في الأمم التي لا تتلقىٰ تشريعها من الله تبارك وتعالىٰ.

فسبحانه هو من خلقنا، وخلق أعضائنا، وخلق الشهوة فينا، فمن أحق من ربنا بالتشريع لنا؟ بل أي حقٍ لمن لم يخلق أن يشرع؟ إن التشريع من دون الله هو عدوان علىٰ الله.. فلاحق في التشريع إلا لمن خلق سبحانه، ولذا قال الله سبحانه: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ﴾، بل أعظم الدمار الذي يصيب البشرية إنما يكون حين تطيش شهوتها، ويجرىٰ عقل الإنسان وراءها، ويسكب ماء البقاء وماء الحياة وراء أهوائها، ويطلق الإنسان العنان لشهوته، تدمر كلما تقدر عليه من حرمات الآخرين.

ثم إن مقصود الأمر كما ذكرنا من قبل؛ التربية من رمضان، وفي رمضان، إلىٰ الحياة كلها، فحري بمن ضبط شهوته في نهار رمضان كله وهي حلال له، وبين يديه زوجته يختلي بها، ولكنه لا يقربها ولا تقربه، مهما ثارت شهوتها، لأنها في هذهِ الفترة وهي نهار رمضان حرام عليه، استطاع بعد هذا الشهر ضبط هذا المارد الكامن في كيان كل إنسان، فهل من مَحضن تربوي مثل رمضان؟

أرأيت ماذا صنع القرآن من هذا الإنسان؟

❊ العلو والواقعية في تناول العملية الجنسية:

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾.

ثم انظر كيف بيّن الله تبارك وتعالىٰ عن النساء والرجال عن العملية الجنسية

الآلية والنفسية، وكيفية ممارسة الشهوة بكل وضوح، ولكن بكل جمالٍ وسترٍ وحياء.. بحيث يقرأ القرآن الصغير والكبير، والرجل والمرأة، والابن والبنت، ولا أحد يخجل من هذا، ولا أب يتحرج من أن يعطي ولده القرآن ليقرأه بل الوالد يعطيه القرآن ليتعبد الله تبارك وتعالىٰ بكلامه، ولأنه لا أحد يملك أن يعلِّم ولده بأي أسلوب مثل هذا الأسلوب الواضح الزاكي الرفيع، هكذا هو كلام الله تبارك وتعالىٰ، لكنه حين يأتي إلىٰ تفصيل الأمر يجد العجب العجاب في الوضوح، وتجد تفصيل الدقائق سواءً من الأحكام أو الآداب أو الكيفيات.

فالله سبحانه أعلن في أول الآية بشرىٰ للمؤمنين والمؤمنات علىٰ حدٍ سواء بفتح هذا الباب الذي أغلق فترة، وهو باب الشهوة، وما أصعب إغلاق هذا الباب علىٰ الإنسان، وفي تقديم كلمة ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ تعجيل البشرىٰ لأمرٍ حبيب للنفس، عسير الصبر عليه، وما أصعب علىٰ الفحل حتىٰ من البهائم أن يمنع من ممارسة شهوته.

﴿ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ﴾ تأمل في قوله ﴿ٱلرَّفَثُ﴾ إنه لفظ عند التعمق فيه واضح تمام الوضوح **في مباشرة الجماع** لكنه في عرْضه هنا لا يشعر بالجماع أبدًا، ولا يَعْرِف الرفث بهذا المعنىٰ إلا المختصون، ثم إن له معانٍ أخرىٰ، منها التقبيل، والمغازلة، وما إلىٰ ذلك، فلكأن الله سبحانه أرخىٰ ستار الحياء بتعدد معاني هذهِ الكلمة عن معناها المباشر وهو الإفضاء من قبل الرجل إلىٰ الموضع المطلوب والمرغوب من المرأة **وقت الإفضاء، والذي اقترب منه الإفصاح حين جاء اسم الإشارة (إِلَىٰ) والذي يدل علىٰ الغاية المطلوبة** إذا ما انتهىٰ الرجل وأفضىٰ به إلىٰ موضعه حيث من الرفث وزادها الله إيضاحًا بقوله (نِسَائِكُمْ).

فقوله سبحانه: (نِسَائِكُمْ) أي: فهن لكم وأنتم لهن، هن حلال زلال.. حلال خاص وخالص لكم وحدكم، لأنهن نساؤكم المخصوصات بكم، وما كن مخصوصات قبل الزواج، ثم إن الله سبحانه لا يبيح لهم الرفث فحسب، وإنما يُحرِّضهم علىٰ ذلك، كما قال سبحانه للرسل عليهم السلام: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: ٥١].

أليس الناس هم عبيده وهو سبحانه خالقهم وخالق شهوائهم، هل مثل هذهِ الواقعية واقعية في الأديان والملل؟ ثم تأمل كيف أشار رب العالمين إلىٰ وجوب مراعاة الرجل حياء المرأة، فالرجل لا ينتظر من المرأة أن تتقدم له بطلبٍ صريح لجماعها، فإن هذا مخالف لطبيعة المرأة وفطرتها، والحياء كما يقال قطرة، فلو كشفت المرأة حيائها خربت المجتمعات وفسدت، ولهذا وجه الله الخطاب للرجال لا للنساء، فقال سبحانه: ﴿أُحِلَّ لَكُمۡ لَيۡلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمۡۚ﴾.

ثم إن في تقديم (أُحِلَّ لَكُمْ) إشارة إلىٰ نجاح الصحابة رضي الله عنهم في المرحلة الماضية، فلقد صبروا، والتزموا، ورضيت نفوسهم، واطمأنت لحكم الله، وما كانت تتصور أن الله سبحانه سوف يرفع هذا الحكم عنهم أبدًا، كما هو شأنهم في جميع الأحكام.

وإشارة نجاحهم رضي الله عنهم هو أنه لو لم تحقق مرحلة التحريم غايتها لما رفع عنهم حكمها إلىٰ التخفيف، لكن هذا الحكم ما رفع ليلًا ونهارًا إنما رفع ليلًا فقط، وما أحسن رفع هذا التحريم في الليل من رمضان؛ فالليل هو موطن الاجتماع، وهو موطن الراحة، وهو موطن السكن والسكينة والنوم والاستعداد للغد ولذا فإن التخفيف بإباحة الجماع ليلًا أمرٌ حكيم، وتحريم الجماع في الليل

أمرٌ شديد ، فلما كان تحريم الجماع في النهار فذلك لتشاغل الإنسان عنه في الأعمال المستمرة ، أما الليل فالاختبار فيه عسير ، ولهذا كانت الصياغة القرآنية بقوله سبحانه ﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ فهو منةٌ لكم من الله سبحانه لكم أنتم .

❁ سر اللباس ومغزاه

ثم قال سبحانه: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ .

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾: هل رأيت أستر من هذا التعبير عن المعاشرة الزوجية ؟ بل هو الستر ذاته ، وهل يستتر الانسان إلا بثوبه ؟ ولكن تعمق قليلًا ، وستجد أن المعنىٰ الأعمق يظهر أكثر فأكثر ، فإن اللباس لا يمكن الانتفاع به ، إلا بلبسه علىٰ جسدك وعملية اللبس لابد فيها من إدخال جسدك في الثوب ، وإدخال المرأة جسدها في الثوب ، إذًا فهي مباشرة ثم هي إدخال ، ولهذا قال الله سبحانه بعدها كما سيأتي ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ﴾ والمباشرة إلصاق البشرة بالبشرة ، وماذا بعد إلصاق البشرة بالبشرة إلا الإيلاج والإنزال بدليل ما جاء في الآية نفسها ﴿فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾ وما كتب الله لكم في هذا الجماع من ذرية صالحة أولًا ، ومن إشباع شهواتكم ، وما وعدكم الله عليه من أجر ، ومن شكر نعمة الله عليكم ، بهذا الحلال الطيب ، وإفراغ ما فيك فيها ، والاكتفاء بالحلال عن الحرام .

فتأمل فَضْل الله علىٰ الناس عامة ، وفضله علىٰ المؤمنين خاصة ، إذ ذكّرهم سبحانه بفضله عليهم ليذْكروه ، ولو لم يذكِّرهم لنسوه ، لأن هذا الموطن – في

العادة ـ ينسىٰ فيه الأنسان نفسه ، ويذهل عن كل شيء إلا شهوته ، لذا جاء تذكير الله سبحانه لهم لئلا يغفلوا فيكونوا كالأنعام في حال ممارسة الشهوة ، وفي حال أكلهم الطعام ، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ [محمد: ١٢].

فهل أرقىٰ من هذا المتاع متاع ؟ وهي رأيت رفعة من وهدة مثل هذهِ الرفعة ؟ وهل رأيت كيف أن الجنس يكون زادًا لزيادة الإيمان ؟ مثلما يصنع كَلامُ الله تبارك وتعالىٰ في نفس الإنسان ؟

❊ إبطال الإلحاد بالجنس المشروع:

﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾.

﴿فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾: يشير الله سبحانه بها إشارة ، مذكرًا المؤمنين والمؤمنات ، من خلال هذهِ العملية الجنسية ، التي تطبق عليها في العادة الغفلة من كل جهاتها ، فإذا بالرجل والمرأة يستدعيان التفكر ، فيريان نعمًا لا تعد ولا تحصىٰ ، ويقولان: لو أنا افترضنا ما افترضتم ـ وهو مستحيل ـ من أن الإنسان وُجد صدفة ، فكيف توجد المرأة صدفة ، كيف يوجد هذا التطابق ما بين الرجل والمرأة في الجسد صدفة ؟ هنا جسد الذكر بالشكل المعروف الواضح المكشوف ويقابله جسد المرأة المخالف له بنسبة ١٠٠٪ ، لكنه الشق المطابق له بنسبة ١٠٠٪ فكيف يمكن أن يكون ذلك ؟ أيمكن أن يكون لذلك



تفسيرًا إلا بأن الخالق واحد؟

ثم كيف يكون لهذا التطابق تطابقٌ نفسي؛ فجسد يحمل الرجولة في كل شيء صوته ومشاعره ونظراته وإقدامه وغَيْرته وهي تحمل الأنوثة التي تتداخل في تلك الرجولة فيكونا كشيء واحد تمامًا من الناحية المعنوية... فمن أوجد هذهِ المشاعر إلا من أوجد هذين المخلوقين؟ أولم يقل النبي ﷺ «النساء شقائق الرجال»؟ شقائق في المحسوس، وشقائق في المعاني، ثم انظر، وستجد هذا التطابق بين كل ذكرٍ وأنثىٰ، في الطير وفي الحيوان، وهكذا يجعل الخالق سبحانه الحياة تتواصل، مع لذةٍ لا نظير لها، ولا يمكن لقلمٍ وصفها، كل هذا بأيسر وأستر وأعمق عبارة، بل عبارة فيها من الرقي بالإيمان من خلال الجنس المشروع في الإنسان وفي الحيوان علىٰ الأرض بل في الأسماك، بل وحتىٰ في النبات.

أليس هذا شاهد واضح بأن هذا هو الله رب العالمين؟ وهذا كلامه؟ وهذهِ تربيته لعبادة جميعًا؟ بعدما أراد الناس الهبوط بالجنس إلىٰ أسفل سافلين، وجعلوا الإنسان الكريم حيوانًا في هذا، وقدوته الحيوان في عملية يسمونها العملية الحيوانية، بينما انظر للقرآن وكيف وضع ختم الوحدانية علىٰ كل شيء؛ فإن خالق كل هذهِ الكائنات واحد تبارك وتعالىٰ، وهكذا لو نظرت إلىٰ الكون المنظور من حولك، **فإنك ستجد أعظم دليل علىٰ وحدانية الله، وهو دليل التعاضد، ودليل المنظومة الواحدة الكون**، بمعنىٰ أن كل شيء شاهد علىٰ أن خالق الخلق واحد لا شريك له، وكلما اتسع نظرك اتسع دليلك علىٰ وحدانية الله، ولو كان ثمة إله آخر لانْهَدَمَ الكون العظيم وزال، وبهذا فإنه كلما اتسع الكون في نظرنا واكتشافاتنا العلمية يتسع إيماننا ويزيد يقيننا... لأنك سوف تجد حقيقة مذهلة، لا يمكن لأي آلة حساب حسابها، ولا لأي ميكروسكوب

إدراكها، اللهم إلا العقل البشري فيمكنه تصور شيئًا ما حولها... تلك أن الكون المنظور لنا كُلّه جعله الله يخدم كل نقطة فيه، كله يخدم أصغر جزئ فيه، وكله مركب بعضه في بعض، ولبعضٍ، بإحكام لا يمكن تصوره، فخلية الإنسان التي لا تُرىٰ بالعين المجردة هذهِ تأخذ غذاؤها من الثمرة أو من أي مكان كان مما أحله الله سبحانه لها، فهذا الكون كله مركب ليخدم الخلية التي لا ترىٰ بالعين المجردة، وهو قائم بإحكام وميزان لا يختل أبدًا كما قال الله سبحانه: ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ﴾ [الرحمن: ٥ ـ ٧].

فأين الحب والعصف والريحان من الشمس والقمر والسماء والأرض؟

فكله بميزان من الشمس إلىٰ القمر... إلىٰ السماء إلىٰ الأرض... إلىٰ الثمر، إلىٰ الخضر، كله بميزان، وهذهِ تنطبق علىٰ طعام كل شيء، وما من طعام لجنس مثل طعام جنس آخر، وكل واحد يَصنع الكون كله لخليته طعامها.. والكون كله مسخر لهذا فالكون كما قال بعض العلماء: هو المطبخ الكبير الذي يصنع فيه طعام كل شيء بدقة متناهية فمن الذي ربط هذا الربط وأحكمه؟ من الذرة إلىٰ المجرة؟ فخلية الحيوانات العشبية غير خلية الحيوانات المفترسة، وخلية الأسماك غير خلية الطير.. غير خلية السحالي... هل تحتمل هذهِ المنظومة الحسابية أي افتراضية فشل؟

وهل يمكن لأحدٍ أن يحصي أصفار هذهِ القاعدة الحسابية؟

فكيف يشارك كل شيء في صناعة كل غذاء... من ضبط الحرارة والبرودة والرطوبة والنور والظلام والتدرج حتى النضج.. من الذي ومن الذي.. ومن

الذي . . إنه الله الأحد .

أقرأ قوله تعالىٰ : ﴿الٓمٓرۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤۡمِنُونَ ۝١ ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمّٗىۚ يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلۡأَرۡضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۡهَٰرٗاۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ يُغۡشِي ٱلَّيۡلَ ٱلنَّهَارَۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٤ ۞وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ۝٦ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ۝٧ ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ۝٨ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلۡكَبِيرُ ٱلۡمُتَعَالِ ۝٩﴾ [الرعد: ١ ـ ٩] .

ما جرّنا لهذا الحديث هو التفكير في قوله تبارك وتعالىٰ : ﴿فَٱلۡـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبۡتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ فإن الإنسان المتدبر ، تثور في نفسه من الأفكار الإيمانية ، وهو يعاشر أهله ما يثور ، وأول ما يثور في نفسه إنما يكون عن نفسه فهي نقطة انطلاق التسلسل الفكري المنطقي ، وربما كانت النكهة الانطلاقة الفكرية العظيمة من الحالة الجنسية والله ﷻ يقول ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾

[الذاريات: ٢١] ، وأول ما يتبع تفكره عن نفسه هو تفكره بوجوده ، ثم وجود آبائه ، ثم وجود من سيوجد منه من ذرية ، ثم تواصلهم إلىٰ يوم القيامة ، ثم اتصالهم بالوجود من حولهم ، ثم أرزاقهم ، وهكذا ، وكل هذا في القرآن الكريم ، فليست هذهِ النقاط التي يقذفها الإنسان عند الإفضاء بشيء لا قيمة له ، فهي سر الحياة ، وشفرة الإنسان والحيوان ، وتأمل ماذا يقول الله سبحانه: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تُمۡنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمۡ تَخۡلُقُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡخَٰلِقُونَ ۝٥٩ نَحۡنُ قَدَّرۡنَا بَيۡنَكُمُ ٱلۡمَوۡتَ وَمَا نَحۡنُ بِمَسۡبُوقِينَ ۝٦٠ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمۡثَٰلَكُمۡ وَنُنشِئَكُمۡ فِي مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٦١ وَلَقَدۡ عَلِمۡتُمُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأُولَىٰ فَلَوۡلَا تَذَكَّرُونَ﴾ ، وكل هذهِ المنظومة الواحدة المتحدة المحكمة التي لو أردنا أن نطلق على عملها الكلي العظيم الموحد مصطلحًا واحدًا ، في كلمة واحدة ، لكانت هي كلمة الله في القرآن الكريم وهو (التسخير) ، وسوف أتركك مع كلام الله تبارك وتعالىٰ وكفىٰ.. ولن أتحدث هنا فحديثي إن لم يشوِّه فلن يزيد ولن ينقص ، فانتقل بنفسك إلىٰ هذا الأفق ، الذي ليس بعده أفق ، واستمع ماذا يقول الله عما خلق ، وانظر إلىٰ المنظومة اللامتناهية ، إلا بانتهاء الدنيا المحتوم يومًا من الأيام ، وما سوف أنقله لك هنا ، إنما هو من سورة النحل الكريمة: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝١ يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ۝٢ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ۝٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن نُّطۡفَةٖ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٞ مُّبِينٞ ۝٤ وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۖ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ۝٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ۝٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ۝٧ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ۝٨ وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنۡهَا

جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنۢبِتُ لَكُم بِهِ ٱلزَّرْعَ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلنَّخِيلَ وَٱلْأَعْنَٰبَ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى سَخَّرَ ٱلْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا۟ مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى ٱلْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل].

❁ كأنها ولادة أمة جديدة:

قال سبحانه: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟﴾ أي لحظةٍ هذهِ التي يشعر فيها العبد بهذا الشرف الكبير، الذي يحكم فيها ربه وحبيبه سبحانه بأدق تفاصيل حياته هو، ولو دقق في التشريعات الغربية لوجد محبة الله له في كل جزئية فضلاً عن الكليات، ولذا فإن كل هذا في مصلحته سواءً في صحته الجسدية، وصحته المعنوية،

وإنشائه نشأة جديدة في التربية، وإخراجه رجلًا جديدًا، وامرأة جديدة في الحياة، ومن ثم أُسرةٍ جديدة وأمةٍ جديدة، فقضية صيام شهر رمضان أكبر من أن تقزم في قضية فرد يؤمر بالإمساك عن الطعام والشراب والجماع ويقتصر أمر الصيام على هذا!... إنها قضية أمة تدخل محضنًا عظيمًا في الصبر، حتىٰ تصبح أمة صابرة، ومحضنًا في عزة النفس، فلا تذل حتىٰ تخرج منه أمة عزيزة، ومحضنًا عظيمًا في الانتظام، وفي الضبط والربط، فيما يتعلق بنفسك، وفي كل ما حولك، ومحضنًا في وحدة الأمة في تفاصيل حياتها، وفي مشاعرها، ومحضنًا عظيمًا في الخُلُق، حتىٰ تخرج أحسن خُلُقًا، ليس من كل الأمم فحسب، بل من نفسها قبل شهر رمضان، ومحضنًا عظيمًا في جهاد النفس، ومن انتصر علىٰ هواه ونقاط ضعفه انتصر علىٰ عدوه، وعلىٰ كل هجوم خارجي أو ضعف داخلي، ومحضنًا عظيمًا لتقوىٰ الله تبارك وتعالىٰ، حتىٰ تخرج أمة تخاف ربها، وتراقبه في كل أعمال حياتها، لتغدوا في ذروة الاستقامة ظاهرًا وباطنًا، سواءً كان عليها نظام يراقبها وقانون يعاقبها أم لم يكن، لأنها تؤمن بالله وتحبه وترجوه وتخافه ﷻ، فهي في ذروة الأمانة في كل ما تتولاه، ومن ثم فشهر رمضان أحسن محضن لإعداد الأمة القائدة، وهو أحسن محضن لإعداد الأمة العابدة لربها، ليس في معبدها فحسب، وإنما عابدة لله تبارك وتعالىٰ في كل شئون حياتها، فهي الأمة الناسكة، الطاهرة المطهرة، وهي الأمة العادلة، لأنها الأمة الأمينة علىٰ منهج الله، وتحقيقه في حياة الخلق، والأمة المفتوحة لكل الأمم، والعروق، واللغات، والألوان، والعادات، لا تفرق بين إنسان وإنسان للاعتبارات التي مزقت الأمم وتعالت بها بعضها علىٰ بعض، بل إن الفضل في هذهِ الأمة لمن هو اتقىٰ لله سبحانه، ومصنع التقوىٰ هو شهر رمضان المبارك ألم

يقل الله سبحانه ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾، وهو محضن لتخريج أمة الرحمة التي تربت شهرًا كاملًا تربية عملية على الرحمة وعاشت عيشة ضِعَاف الناس شهرًا بأكمله، وهنا نتساءل: هل خروج مثل هذهِ الأمة التي خرجت في هذا الشهر من عبودية ذاتها، والنظر القاصر لإنجازاتها، وملكاتها هل خروجها خير للناس أم شرّ؟ بل هل من خير مثل خلاص الإنسان من الأمم الظالمة الطاغية الناهبة المجرمة المحاربة لمن يريد الخروج من سطوتها وهيمنتها وعبوديتها أم لا؟!

فهي الأمة التي تطهرت من الكِبْر، حتىٰ لا تَقْبل منهُ ذرة واحدة في قلبٍ أي فرد من أفرادها، كما قال النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر»[1]، إذًا فهي الأمة التي تخرج من رمضان أعظم تواضعًا للخلق، وكلما زادها الله رفعة زادت تواضعًا حقيقية وليس تمثيلًا... كيف وسيدها وإمامها رسول الله ﷺ يقول: «اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ المَسَاكِينِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[2]، فهي أمة لا تقوم علىٰ عنصر تقديس العرب أو تقديس العجم، أو تقديس عرق، وليست أمة مغلقة غير قابلة للزيادة، بل هي الأمة المفتحة على كل أهل الأرض دون استثناء، بل للأنس والجن جميعًا، بل رحمة لكل العوالم، كما قال الله سبحانه لمن بعثه بالرسالة ﷺ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]، وكما قال سبحانه هنا ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ وليس هُدىٰ المؤمنين وحدهم.

ما دام الله تبارك وتعالىٰ وضع هدفًا لهذِه الرسالة الخاتمة، وهي رحمة العالمين، فلابد أنها سوف تحقق هذِه الرحمة، وتقيم هذِه الخلافة، ليذوق

(١) رواه أبوداود (٤٠٩١) وصححه الألباني.

(٢) رواه الترمذي (٢٣٥٢) وصححه الألباني.

الناس رحمة الله النموذجية، العامة الشاملة لكل من خلق الله، رحمة الإنس والجن، والحيوان وللنبات، ولكل شيء ﴿رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾.

لقد وعد الله سبحانه بهذا، ومن أوفي بعهده من الله حيث قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ [الفتح: ٢٨].

وقد أخبر النبي ﷺ بهذا، ومن أصدق من رسول الله ﷺ في العالمين فقال: لَيَبْلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ، وَلَا يَتْرُكُ اللهُ بَيْتَ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ هَذَا الدِّينَ، بِعِزِّ عَزِيزٍ أَوْ بِذُلِّ ذَلِيلٍ، عِزًّا يُعِزُّ اللهُ بِهِ الْإِسْلَامَ، وَذُلًّا يُذِلُّ اللهُ بِهِ الْكُفْرَ»[1].

❊ التزام العبادة وسعة العقل في رمضان:

قال سبحانه: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾.

والمقصود بـ﴿ٱلۡخَيۡطُ ٱلۡأَبۡيَضُ مِنَ ٱلۡخَيۡطِ ٱلۡأَسۡوَدِ مِنَ ٱلۡفَجۡرِۖ﴾ هو انتهاء الليل ودخول النهار، لكن في التعبير بهذا إشارة إلىٰ وجوب تحريك العقول، وأن هذهِ الأمة ليست أمة حرْفية، تتلاعب بالحروف، وتقدس ما تتلاعب به، كما هو شأن اليهود، فهم يخرجون عن كل الكتب، ويخرجون من طاعة الله وطاعة رسل الله

(١) رواه أحمد (١٦٩٥٧) وقال المحقق: إسناده صحيح علىٰ شرط مسلم.

ﷺ، إلا أنهم يتجمدون عند البقرة، أو العجل، أو عند أساطير يصطنعونها، كحائط المبكىٰ، أو طقوس كاذبة يقدسونها، أو نحو ذلك.

ولهذا ورد إنكار النبي ﷺ علىٰ عدي ابن حاتم حين فهم الفهم الحرفي للخيط الأبيض والخيط الأسود، فقد روىٰ عدىٰ ابن حاتم قال: «لمَّا نزلَت هذِهِ الآيةُ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ عمِدتُ إلىٰ عِقالينِ، أحدُهُما أسوَدُ، والآخرُ أبيَضُ، فجعَلتُ أنظرُ إليهِما، فلا يتبيَّنُ لي الأبيضُ منَ الأسودِ فلمَّا أصبَحتُ غَدوتُ علىٰ رسولِ اللَّهِ ﷺ، فأخبرتُهُ بالَّذي صنعتُ، فقالَ: إنَّ وِسادَكَ لعَريضٌ إنَّما ذلِكَ بياضُ النَّهارِ وسوادُ اللَّيلِ»[1]، وعريض الوسادة تعني حَرْفي ثقيل الفهم بطيء التفكير.

وهنا حرف مُهم ذو قيمة كبرىٰ، ذلك هو حرف الفاء، الذي صُدّرت به العبارة الكريمة في الأمر الإلهي، (فَكُلُوا وَاشْرَبُوا)، فإن الفاء تعني الفورية، أي أنه بمجرد أن تغرب الشمس فعليكم أن تفطروا، وبمجرد أن يطلع الفجر عليكم أن تمسكوا، ولا خيار لأحد في الزيادة لحظة واحدة بعد تمام غروب الشمس ليقطع الله سبحانه دخول أي رهبانية علىٰ هذا النسك العظيم وعلىٰ هذا الدين الكريم، وهكذا يبقىٰ الصيام مدرسة في الانضباط، فقد روىٰ أبو سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر»[2]، وقال ﷺ: قال الله عز وجل «أحب عبادي إليَّ أعجلهم فطرًا»[3].

(١) رواه البخاري (٢٣٤٩).

(٢) رواه البخاري (١٩٥٧).

(٣) رواه ابن خزيمة (٢٠٥٨) وصححه الألباني.

❁ حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر:

تأمل كيف بر الله سبحانه سبحانه هذه الأمة على الاستبانة في أمر الصيام شهرًا كاملاً ليتحول هذا الأمر إلى خلق ومنهج حياة، فالأمة التي تستبين كل يوم في أمرٍ حسي لحَرِيَّة أن تستبين في كل أمر مشتبه من الأمور المعنوية وهي أمة تعرف جيدًا النور من الظلام الفكري والعقدي أكثر من النور والظلام الحسي، وما من أحدٍ منا إلا وهو يرى كيف تتخبط الأمم كلها في الظلمات العقائدية والفكرية على مستوى علمائها ومفكريها فضلاً عن عامتها، بينما تلك الضلالات والظلمات يستبينها عامة المسلمين وربما صغارهم، أرأيت أي عنصر تربوي عظيم في الصيام؟ وهل رأيت دينًا صحيحًا بينًا يدعو أصحابه إلى الاستبانة مثل الإسلام؟ أرأيت كيف أمر الإسلام أن لا يربي أتابعه على أن لا يكونوا إمّعات، وأن يستبينوا كل شيء حتى لو كانوا أفرادًا فهو مسؤولون عن استبانته كما رأيت في حديث عدي بن حاتم، وكيف عاتبه النبي ﷺ وعلّمه.

❁ ثم أتموا الصيام إلى الليل:

قال الله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَتِمُّواْ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيۡلِ﴾.

أما في هذهِ العبارة فقد ابتدأت بحرف (ثُمَّ) وثم تفيد التراخي أي طول المدة ما بين ما قبل (ثم) وما بعدها، وهذا هو الواقع، فإن (ثم) هنا تمثل طول فترة النهار، وهذا يعني الإمساك عن المفطرات، بنية العبادة لله رب العالمين، طوال فترة النهار، إلىٰ الليل، والليل يدخل فور غروب الشمس لحديث: «سرنا

مع رسولِ اللهِ ﷺ وهو صائمٌ، فلما غربتِ الشمسُ قال: انزلْ فاجدحْ لنا قال: يا رسولَ اللهِ، لو أمسيتَ؟ قال: انزلْ فاجدحْ لنا، قال: يا رسولَ اللهِ، إن عليك نهارًا، قال: انزلْ فاجدحْ لنا، فنزل فجدحَ، ثم قال: إذا رأيتم الليلَ أقبل من ها هنا، فقد أفطرَ الصائمُ، وأشار بإصبَعِه قِبَلَ المشرقِ»[1].

وهكذا يتقلب الليل والنهار والمؤمن بالله في عبادة الله، سواء في إمساكه في نهار رمضان، أم في إفطاره في ليالي رمضان، لأنه طائع لله في هذهِ وهذهِ، حتىٰ إن الإنسان لا يدرىٰ أي الاثنين في شهر رمضان خير؛ ليله أم نهاره.

❊ ولا تباشروهن و أنتم عاكفون في المساجد:

ثم استثنىٰ الله تبارك وتعالىٰ من إباحة المعاشرة الزوجية في ليالي رمضان مَن هم معتكفون في المساجد، وليس المقصود المعاشرة في المساجد، فإن المعاشرة في المسجد للمعتكف وغير المعتكف لا تجوز، فليس المسجد للمعاشرة الزوجية، وليس هو شقق فندقية، ولا غرف نوم، بل المسجد بيت الله كما سماه النبي ﷺ وليس بعد هذهِ النسبة من شرف، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

وهنا حقيقة عظيمة، هي أن الاعتكاف لا يجوز إلا في المسجد، والنبي ﷺ لم يعتكف إلا في رمضان، وهذا هو نظام الاعتزال في رمضان، فهو محصور في شهر رمضان، ثم هو في المسجد فقط، فليس في الكهوف، ولا البراري، ولا غيرها، والاعتكاف لا يقطع المعتكف عن الجانب الإيجابي الاجتماعي إن

(١) رواه البخاري (١٩٤١).

اقتضىٰ الأمر ذلك ، مثل الشفاعة لمن طلبها من المعتكف ، وإغاثة الملهوف ، ودفن الميت ، ونحو ذلك ، ولهذا فإن استثناء الله سبحانه من بين الأعمال عدم مباشرة الأزواج يدل علىٰ أن الأمر واسع في غيرها ، لكن الأصل هو الاعتكاف ، وإلا فإنه لن يأتِ بثمرته إذا ما أصبح بغير ضابط ولا نظام ، وقد مرّ معنا الحديث عنه ، وإن من جرّب الاعتكاف في المسجد في رمضان تحديداً ، عشرة أيام أو نحو ذلك ، ثم خرج من الاعتكاف ، وجد نفسه يخرج بروح جديدة ، ونفس جديدة ، كأنه الوليد يخرج إلىٰ الدنيا ، بغير ذنوب ، ولا هموم ، ولا أثقال ، ولا مخاوف ، ولو لم يكن للاعتكاف ضوابطه ما كان ليحقق ذلك ، ولهذا عظم الله سبحانه شأنه وقال: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ .

ولا يحسبن أحد أن المعتكف محكوم بأشد أنواع المجاهدة والتضييق ، فهذا غير صحيح ، إنما هو ينوىٰ الاعتكاف في المسجد ، يومًا أو عدة أيام ، من أيام رمضان ، ثم لا يخرج من المسجد طوال المدة التي اشترطها ، إلا أنه طوال هذهِ الفترة يعيش حياته الطبيعية من أكل وشرب ونوم ويأخذ دواءه ، وما إلىٰ ذلك ، اللهم إلا المعاشرة الزوجية ، فهذهِ لا تحل له ما دام معتكفًا في المسجد ، ويستحب له أن يفرغ نفسه في هذهِ الفترة لقراءة القرآن ومدراسته ، فقراءة القرآن في شهر رمضان نور علىٰ نور ، وذكر الله ، والصلاة ، والدعاء ، وطلب العلم ، وتدريسه ، ومدارسته ، وأن ينشئ أعمالًا صالحة ، إن استطاع ، أو يشارك فيها ، وهو بالتالي يحضر الصلوات الخمس في المسجد ، بل يشهد الأذان ، ويبقىٰ في المسجد بعد خروج المصلين ، وهذهِ الحياة النقية الطاهرة المطهرة لها من الثمرة والتجديد ما لا يمكن أن يتذوقه الإنسان بمجرد الوصف الورقي هذا .

ولذا فإنه إن استدعي لمثل ما ذكرنا من أمور الحياة خرج من معتكفه وقضى

حاجة الناس المحتاجين عاد فور قضائه حاجتهم إلى معتكفه الطاهر المطهر ليواصل الشحن الإيماني، ليبقى متفرفعًا معطاءً باذلاً ذو خلق حسن ليفيض على الناس خيرًا ورحمة... وهكذا يصنع القرآن الطاقة الإيمانية المتعدية والإيجابية، والتي لا وجود لها إلا في الإسلام.

❊ ارتباط كل حكم بالله:

قال الله سبحانه: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾.

ليست هذهِ الكلمة الكريمة والخاتمة العظيمة مختصة بالاعتكاف، بل هي لكل الأحكام التفصيلية التي وردت في الآية الكريمة بما فيها الاعتكاف، لئلا يظن الظان أن التركيز على الأهداف، وأنّ الأحكام التفصيلية قشور لا قيمة لها، أو هوامش غير مهمة! ولهذا فإن هذهِ الكلمة الكريمة أعطت القدسية لكل الأحكام المذكورة، كما منحتها طابع العبودية، كما ألزمت الصائم بالنية في كل أعماله قبل أن يشرع فيها، لكي تُقبل منه، ويؤجر عليها.

إن قوله تعالى ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ جعل لكل عمل من الأعمال المذكورة صلة بالله، فهو مَن حدّ حدود العمل، وحدودهُ هي حدود الله، وكفاها ذلك شرفًا وكفي المتعدي عليها والمتهاون فيها مجازفة وظلما، ولهذا ختمها الله سبحانه بقوله ﴿فَلَا تَقْرَبُوهَا﴾ أي فلا تقربوا حدود الله تعالى فضلاً عن أن تفعلوها أو تباشروا العدوان عليها. والله سبحانه حين يحذر من الاقتراب من محارم الله إنما لينقذ العباد من عقاب فعلها أو الاجتراء عليها، وبهذا يعلم الله سبحانه

العباد منهجًا في التربية عظيم ذلك هو الوقاية من الوقوع في الخطأ بعد الاقتراب من الخطأ، وعدم المجازفة في ذلك، وقد قال النبي ﷺ في حديث عظيم هو من أساسيات الإسلام كله، وأساسيات العلم والعمل، فقد قال النبي ﷺ: «إنَّ الحَلالَ بيِّنٌ، وإنَّ الحَرامَ بيِّنٌ، وبينَهمَا مشْتَبَهاتٌ، لا يعْلَمُهُنَّ كثيرٌ من الناسِ، فمنْ اتَّقَىٰ الشبهَاتِ استَبرَأَ لدينِهِ وعِرضِهِ، ومن وقعَ في الشبهَاتِ وقعَ في الحرامِ، كالراعِي يرعَىٰ حولَ الحِمَىٰ، يوشِكُ أنْ يَرْتَعَ فيهِ، ألا وإنَّ لكلِ ملِكٍ حِمًىٰ، ألا وإنَّ حِمَىٰ اللهِ محَارِمُهُ، ألا وإنَّ في الجَسَدِ مُضْغَةً، إذا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ وإذَا فَسَدَتْ، فسدَ الجَسدُ كُلُّهُ، ألا وهِيَ القَلبُ»[1].

❁ ما بين ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ **و**﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾:

قال ربنا تبارك وتعالىٰ: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾.

تأملوا هذا الختام العظيم أيها الناس الأكارم: فإن الأحكام المذكورة سابقًا إنما هي أحكام للصائمين وهم ـ بغير شك ـ المؤمنون، لكن الله سبحانه يقول: لا ليس كذلك فحسب، بل هي آياته للناس، والناس أشمل وأكبر من المؤمنين، **ولا ينبغي أن نقول إن الله ﷻ قال (للناس) والمقصود بهم المؤمنين**، لا ليس الأمر كذلك، فلو أراد الله سبحانه المؤمنين لقال يبين آياته للمؤمنين، **تقول**: وكيف يكون الصيام للناس والذين يصومون هم المؤمنين فقط؟

فالجواب: إنك إذا نظرت في الآية التي فرض الله فيها الصيام تجد أن الله

(١) رواه البخاري (٥٢).

خَتَمَها بغاية الصيام فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣].

كما ختم هذه الآية بنفس الغاية، فقال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾.

ففي الآية الأولىٰ كان الخطاب فيها مباشرة من الله تبارك وتعالىٰ للذين صاموا؛ فخاطبهم بقوله ﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾، وأما في هذهِ الآية خاطب الناس خطاب الغائب أي الذين لم يصوموا بقوله: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾.

وفي الآية الأولىٰ كان رجاء التقوىٰ ﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾، بناء علىٰ ثمرة أداء فريضة الصيام، أما في هذهِ الآية فكان الخطاب عائد لبيان آيات الصيام فقال سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾، وإن خطاب الله سبحانه للناس في هذه الآية خطاب الغيبة لقوله (لعلهم) وإنما هو خطاب لهم ليحضروا في شهر الصيام أو في غيره، وليأتوا وليأخذوا هداهم... فكيف يربح من غاب عن ربه؟ ولتتحولوا من (لَعَلَّهُمْ) إلىٰ (لَعَلَّكُمْ)، مباشرة مع الله تبارك وتعالىٰ، بلا وسيط ولا وساطة.

ثم إن الله سبحانه حين يقول إن في بياني للصيام وأموره هدىً للناس فهو سبحانه قد جعل الهدىٰ حقيقه في كلامهِ ـ هذا الذي قرأناه وبيَّنا ما تيسر من بيانه هنا ـ هدىً للناس حقيقة، وهذا يعني كذلك أن الله سبحانه كَلَّف الأمة المؤمنة الصائمة أن يبلغوا الناس كافة هذا الهدىٰ، الذي رأوه في شهر رمضان، من خلال مصدر الهدىٰ، وهو القرآن، فالصيام هو الصيام، لكن ما يجعله شمس هداية، هو القرآن، لأنه كلام رب العالمين، وقد جعله سبحانه هدىً للعالمين، ولا

ينبغي لأمة محمد ﷺ أن تخجل من هذهِ العبادة العظيمة... فكل ما فيها هدىً، ونور، ورحمة، فلترفع بذلك صوتها، ولتنشر على العالمين هداها، فغيرها من الأمم والناس هم من ينبغي أن يستمعوا جيداً، فهذا هو ما لم يتذوقوه، وهذا الهدىٰ هو ما فقدوه، وآن لهم أن يعودوا، وأرجو من الله أن لا يموتوا ولم يتذوقوا ـ والله ـ أجمل ما في أشهر العمر كلِّه، وهو شهر رمضان.

أما الآن فدونكم القرآن مصدر الهداية والنور، اقرأوا آيات الصيام، واقرأوا ما كتبناه هنا، خدمة للأفهام أن تصل إلىٰ النور وهو كلام الله، فكلامي ليس نورًا، إنما النور أمامك، وما أنا إلا مشير بأصبعي نحو الطريق أو مشير بقلمي نحو كلام الله، فاتركني من فورك وأكمل الطريق... فعند هذهِ النقطة ابتدأَ طريق النور، وعند هذهِ الخطوة يبتدئ مشوار الهدىٰ في الوادي المقدس ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾ [طه: ١٢].

قال الله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾.

لا تقل عن بقية الناس: كيف يتقون وهم لم يؤمنوا بعد؟!

لا تقل ذلك أيها المسلم، فإن الذي خلق يعلم أنهم يتقون، ضمانًا من الله سبحانه، أو شبه ضمان، بأنكم إذا بينتم لهم أمور الصيام من بيان الله، وقربتموهم من آيات الله حتىٰ فهموها حق الفهم، فإنهم سوف يؤمنون ويتقون معًا، فكأنهما درجة واحدة، وليس درجتين، والله يخفف هذا علىٰ المؤمنين، ويدفعهم إلىٰ البلاغ دفعًا، وسوف يرون سرعة الثمرة المباركة... فماذا يا تري في بيان الله للناس؟!

ثم إن فيها أن من لم يتق من الناس كما يتقي الصائمون، فإنهم سوف يتقون



الله بمعني يخافون عذابه إذ عرض عليهم الصيام فلم يصوموا ، فسوف يبقي ذلك خوفًا ملازمًا لهم إلىٰ أن يموتوا ، لكنه خوفٌ لن ينفعهم عند الله ، لأنهم لم يؤمنوا به ، إذ لم يهتدوا ، فللصوم مهابته وللصوم رسائله حتىٰ لغير المؤمنين بالله ، فإن الأمة بصغارها وكبارها ، وقد هبت عن بكرة أبيها ، نحو الصيام لمدة شهر بأكمله ، طائعة متشوقة ، تعيش ألذ ما في عمرها ، منضبطة كامل الانضباط ، بكل شيء لأَمةٌ ينبغي أن تُحترم ، ومن لم يحترمها هابها وخافها ، إذ طاعتها لله هذهِ أبلغ رسالة بأنها سوف تطيع الله في كل ما يأمرها ، حتىٰ لو كان ذلك في أثقل الأوامر وأصعبها .





❁ الخاتمة: انطلق..... انطلق

(انطلق.. انطلق) هذه كلمة قالها الملكان للنبي ﷺ، كلما أراد التوقف في رحلته معهما، للسؤال عما رآه من أمور أثارت عجبه، في تلك الرحلة العظيمة الطويلة، بمشاهدها الخاطفة في زمنها.... حتىٰ لكأن الزمان توقف فيها.

﴿فَٱنطَلَقَا﴾ وهذه الكلمة التي جعلها الله تبارك وتعالىٰ شرارة انطلاق في كل مرحلة من المراحل الثلاث التي سار بها الخضر عليه السلام بموسىٰ عليه السلام... وإنها لرحلة علىٰ هذهِ الأرض، لكنها رحلةٌ كلها عجب، وكلها إعجاز، وكلها إخبار بالغيوب، وكلها عن هذهِ الأمة خاصة.

(فانطلقا... فانطلقا... فانطلقا)

إنها السرعة التي يكاد يتوقف فيها الزمن، بدليل أن القائد الذي طوىٰ العالم آنذاك طياً، والذي مهد الله لذكر قصته بآية كاملة فقال: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣] كان الله سبحانه يذكر عنوان انطلاقاته في كل مرة بقوله: ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ وما قال سبحانه «فانطلق» والله أعلم بما يقول، وهو الحكيم الخبير وذلك ليدرك العباد أن ذا القرنين رغم فتح الله له، إلا أنه مقيد بأسباب الدنيا أما الأمر مع الخضر عليه السلام، فالأمر يختلف تمام الاختلاف، وقد خصصت الخضر عليه السلام بدراسة محققة مدققة معمقة، كلها من كتاب الله، ومن سنة رسوله ﷺ، هذا بالإضافة لتفسيرٍ لسورة الكهف كاملة، في ألف صفحة، والحمد لله رب العالمين، بالشرح المتوسط، الذي هو أقرب

إلىٰ التوسع منه إلىٰ الاختصار، ولذا فإنه لا يمكن لأحدٍ أن يفهم قصة الخضر، ما لم يفهم جيداً سورة الكهف، ويعرف الربط المحكم مع السورة كلها، ويعرف سر موقعها هذا في السورة، أوليست سورة الكهف لأمة محمد ﷺ خاصة، وأنها تقرأ في اليوم الذي خصه الله لأمة محمد ﷺ يوم الجمعة، وأنها وقاية لأخطر المخاطر علىٰ أمة محمد ﷺ، وهو الدجال، نعوذ بالله منه، وأنها السورة التي ابتدأت بالكتاب وبرسول الله ﷺ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ [الكهف: ١] كما اختتمت بالكتاب وبرسول الله ﷺ ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا ١٠٩ قُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَلَا يُشۡرِكۡ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدَۢا﴾ [الكهف: ١٠٩ ـ ١١٠].

هنا نقول «انطلق»... «انطلق»، ونقول «فانطلقا» «فانطلقا»، ولا يصلح إلا هذا، في زمن يقال فيه انطلق إلىٰ الوراء! فنقول لمن أراد تأويل القرآن: قد أصبحَ بين يديك نموذج، لأعظم هدف من أهداف القرآن العظيم، والكتب كلها، وهدف كل الرسالات الإلٰهية ورسالة رسول الله ﷺ أعظمها ولها الهيمنة عليها ألا وهو هداية الخلق؛ فانْطَلِقِ في بحر الفهم بهذا، فهو مقصود كل الأفهام، فانطلق... انطلق.

ونقول لمن أراد أن يَحْمِل هذا المشروع، الذي بين يديه، هو لك فانطلق انطلق، ولا تلتفت لأحد... وهكذا هي أمور الساعة، وما اقترب منها، فإنها من السرعة والتتابع كالعقد إذا انفرط.

وهكذا إذا ابتدأت الانطلاقة الخاتمة، فلن تتوقف حتىٰ يرسل الله الريح الطيبة فتقبض روح كل مؤمن ومؤمنة، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفهرس